حزيـران

١٩٧٧

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

دمشق ـ ص٠ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

بقلم

رئيس التحرير

وأيضـا ٠٠ أدبـاء المملكـة

ما كادت مجلة الثقافة تعلن عن اصدار أعدادها الخاصة عن أدب المملكة العربية السعودية حتـى وردت الرسائل العديـدة تحمل أحسن نتاج لهؤلاء الادباء الكبار ٠ الا أننا ما نزال ننتظر المزيد راجين من الاخوة الادباء ممن لم يصل نتاجهم بعـد ، التكرم بموافاتنا بما يجدونه صالحا لهذه الخطوة التي تخطوها المجلة ٠ وما ذلك الا ليتسنى لنا ترتيب هذه الاعداد بدراساتها وقصصها وشعرها ، موفين لكل نتاج حقه من الاخراج ووضعه في المكان اللائـق بـه ٠

ولا يسعنا الا أن نقدم أسمى آيات الشكر لكل من أسـهم ويسهم في هـذا العمل الذي نعتبره بادرة خـير وبارقة أمـل للقاء أوسع وتعاون أنفع ٠

رئيس التحريـر

الاسلام والحضارات المعاصرة

د. محمد عبد المنعم الخفاجي

ان حاضر العالم الاسلامي مثير للشفقة ، داع للتساؤل باعث على التأمل .

أما ماضيه فمعروف ، وأما مستقبله وغده فالامل فيه كبير باذن الله .

والماضي والحاضر والمستقبل، أو الامس واليوم والغد حلقة متصلة .

فالغد هو التاريخ المفتوح الممتد ، فلم يعد الزمـان مفصولا الى ماض وحاضر ومستقبل .. بل تطور متصل وحلقة متكاملة ، يكمل غده حاضره وماضيه أبدا ، فالحياة وحدة ، فروعها من جذورها الضاربة في أعماق الماضي البعيـد .

والغد هو حاضر الابناء والاحفاد ، وهو الامل الذي نعيش له ونحلم به دائما ، ونتمناه يجيئنا في جمال الربيع وعطر الورد ورقة السحر ، فكلما ضاقت نفس الانسـان بالهموم ، وأحاطت به الازمات ، وأدركه السأم من واقـع سيء ، تمنى الخروج منه الى غد أفضل .

وتخطيط الانسان للغد أمر ممكن ، والامم الحازمة تخطط للمستقبل ، ومن أجل ذلك تقوم وزارات التخطيط في معظم الدول اليوم ، وهنا تتجلى عظمة الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا » .

وتبدل الحاضر المؤلم الى غد أفضل ، ليس بالامر البعيد عن حدود الامكان ، وليس بالشيء الذي تعجز عنه قدرة الانسان .

شواهد من التاريخ :

وتمثل انتصارات المسلمين الكبرى خلال حقب التاريخ امكان هذا التحول ، وقدرة العقل المسلم على تحويل الهزائم الى نصر مبين ، وأمامنا شريط ممتد من بدر الى فتح مكة فاليرموك فالقادسية ، ثم حطين فعين جالوت .. الخ .

لقد وقفت الامبراطورية الرومانية الشرقية في وجه الاسلام العظيم منذ معركة اليرموك حتى فتح قسطنطينة على يد السلطان محمد الفاتح في أواسط القرن التاسع الهجري ، تشن عليه الحروب وتدير المؤامرات ، وتؤلب عليه القوى المختلفة .. ونحن نعرف أنها كانت احدى القوى المحركة للاحداث في الحروب الصليبية ، وأنها كانت المحرك لجيوش التتار لغزو العالم الاسلامي . وحسبنا دليلا على ذلك ، ما يرويه التاريخ من أن هيتون ملك أرمنية كان العامل الرئيسي في اقناع المغولي – مان جوخان – (٦٤٦ – ٦٥٥ هـ / ١٢٤٨ – ١٢٥٧ م) بارسال تلك الحملة التي التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو ٦٥٦هـ – ١٢٥٨م فان هولاكو التتري زوج ابنه من ابنة امبراطور القسطنطينة . ومع جرائم الامبراطورية الرومانية الشرقية ضد الاسلام وشعوبه ، فانها لم تلبث أن انهارت فجأة بدخول محمد الفاتح القسطنطينة عام ٨٥٧ هـ – ١٤٥٣ م ، حيث سار من باب القديس رومانوس ممتطيا صهوة جواده في موكب نبيل الى كنيسة – سانت صوفيا – فأذن من فوق قبابها للصلاة ، وكان ذلك انتصارا رائعا للروح الاسلامية ، ودليلا قويا على أن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين وفي تشديد معنوياتهم ، لم يصبها أبدا الوهن في يوم من الايام .

ان الشعب العربي المسلم لا يعرف اليأس أبدا ، ولن يتطرق اليأس الى قلبه في يوم من الايام .

يقول اقبال شاعر الاسلام في العصر الحديث : (انك أيها المسلم في العالم كله حق وحدك ، وما عداك سراب خادع ووهم باطل) .

ويقول سارتون المستشرق الامريكي المشهور : « ان شعوب الشرق الاوسط قد قادت العالم في حقبتين طويلتين :

أولهما : قبل اليونان طوال ألفي سنة .

وثانيهما : في العصور الوسطى – يريد عصور حضارة الاسلام – مدة أربعة قرون على الاقل ، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم مرة أخرى في المستقبل القريب أو البعيد » .

ويقول مستشرق ألماني ، هو صاحب كتاب – الاسلام قوة الغد العالمية – في ختام كتابه نقلا عن مفكر انكليزي : « لا يساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل في جوانحها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون خطرا على أعدائه » .

وأقول لهذا المفكر : ان الاسلام ليس خطرا على أحد بل هو سلام وهدى ورحمة وخير للانسانية كافة .

الغد الذي نريده للاسلام :

انه – حتما – لا يمكن أن يكون غدا آخر مقطوع الصلة بماضينا ، لان ذلك محال يأباه ديننا وتاريخنا وتراثنا

وعقلنا ، ويأباه أيضا منطق الاشياء ، واذا تصورنا غدا آخر مقطوع الصلة بالماضي ، فان من المحال الوصول عن طريقه الى أهدافنا والى وحدة اسلامية ووطنية كاملة ، ومن المحال كذلك في ظله تلافي الصراع الطبقي والحروب الاجتماعية بين طبقات المجتمع ، وقد فشلت ، ولا تزال تسير في طريق الفشل كل المحاولات لبناء غد للاسلام يرتكز على أصول غير اسلامية من الوثنية أو العلمانية أو المادية الالحادية أو غيرها من المذاهب الاقتصادية والسياسية السائدة اليوم .

ومحور دعوات أئمة الاسلام ومفكريه في العصر الحديث هو عودة الفكر العربي الاسلامي الذي يستمد مقوماته من الاسلام والقرآن منطلقا من الرسالة التي أذن بها محمد – صلوات الله وسلامه عليه – في شعاب مكة وبلغها الناس كافة .

ونحن نعلم أن عدد المسلمين اليوم في العالم لا يقل عن سبعمأة مليون في آسيا ، ونحو عشرين مليون في أوروبا وأمريكا ، وهو عدد هائل يمكنهم أن يصنعوا المعجزات في عالمنا المعاصر .

الاسلام عدل ورحمة حب كبير :

يقول العقاد رحمه الله : « اذا بقي للاسلام ايمانه والمؤمنون به ، فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ، ولا من أقوياء الغد المجهول » .

وأقول للعقاد : أنه اذا بقي للاسلام ذلك ، فان قيادة العالم كله ستوضع بين يديه ، لانه حينئذ لن يكون هناك صوت أعلى من صوته ، ولا راية أرفع من رايته ، وليس الاسلام خطرا على أحد ، ليس خطرا على المسيحية ولا على اليهودية ، ولا على الشرق ولا على الغرب ، لانه دين السلام والعدل والرحمة ، ودين الحب والتسامح الحقيقي .

ويشهد برنارد شو بحيوية الاسلام العجيبة ، ويقول : « انه الدين الوحيد الذي له طاقة هائلة لملائمة أوجه الحياة المتغيرة ، وهو صالح لكل العصور »وقال عن رسول الاسلام : « انه يجب أن يسمى منقذ الانسانية ، وأعتقد أنه لو أتيح لرجل مثله أن يحكم العالم الحديث لحالفه التوفيق في حل جميع مشكلاته بأسلوب يؤدي الى السلام والسعادة اللذين يفتقر العالم اليهما كثيرا » .

واذا كان المسلمون اليوم انتهى مصيرهم الى فرق : فرقة تذهب الى أن الاسلام قد انتهى زمنه ، وهؤلاء قد سيطر الجهل على عقولهم ، فهم مثلا لا يبلغون في فهم الاسلام مبلغ بعض المستشرقين الذين يجهر واحد منهم بأن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن .

وفرقة أخرى تذهب الى أن الاسلام سوف يعود الى الظهور على مسرح الحياة قوة عالمية ثالثة بين بين قوتي الشرق والغرب. قوة بين العديد من القوى التي تسيطر على أقدار العالم والحياة .

ويردد العقاد ذلك الرأي في كتابه – الاسلام في القرن العشرين – فيقول : « ان الاسلام مجموعة من مجاميع الامم الكبرى في القرن العشرين » وكذلك ذهب الدكتور محمد البهي في كتابه « الفكر الاسلامي : مشكلات الاسرة والتكافل » ، وأشهد بخطأ هذا الرأي ، وأقول خلافه : ان الغد للاسلام وحده ، انه سيكون في الغد القوة الوحيدة في العالم ، ولسوف يكون الايمان أمرا توحيه مسيرة التاريخ وحتمية انتصار الحضارة .

رأي في فلسفة الامام محمد عبده :

ومن هذا المنطق أرفض فلسفة الامام محمد عبده ومدرسته التي سادت في عصر سيادة الاستعمار البريطاني ، وهي الفلسفة التي كانت تعمل لايجاد التقاء فكري بين

الاسلام وحضارة الغرب ، وأرى أن فكرة هذا الالتقاء خطأ جسيم ،لانه لا هدف من وراء هذا الالتقاء الا خضوع الاسلام لقوة الغرب وماديته وحضارته ، وهذا ما يعمل له الكثير من أتباعهم في الشرق الاسلامي ، وهذا الالتقاء ليس حوارا بين الاسلام وحضارة الغرب للدعوة الى الاسلام ، ولكنه اعلان من جانب واحد هو جانبنا لتنازل الاسلام عن أفكاره الاساسية بحجة مجاراة الحضارة الغربية ، ومعنى ذلك أن دين الله يجب أن يستمد صلاحيته من مشرعي الحضارة الغربية ، وحاشا لله ذلك ، لاننا لا نؤمن بديننا الا اذا آمنا بأن جميع النماذج يجب أن تعود اليه وأن تصب في قالبه .

أهداف الصهيونية :

ان غرض الصهيونية العالمية هو تمييع التراث العربي الاسلامي في المنطقة على الرغم من تمسكها هي بتراثها الديني اليهودي .

ولقد مدت الصهيونية أيديها الى الوثنيات المختلفة ، تستعين بها في محاربة الاسلام والقضاء عليه في بلاده وفي بلاد أخرى كانت اسلامية آمنة ، مثل القرم والقوقاز وبخاري وسمرقند وخوارزم وزنجبار والفيليبين وموزمبيق وسواها، وكذلك نرى الصهيونية تلقى معاونة من الدول اليسارية على السواء وغيرها،وهذا كاسترو ينصح السفير الاسرائيلي في بلاده – كما ذكرته صحف كوبا واذاعتها – وترجمته عنها صحفنا العربية ، فيقول له : « **على اسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعا اسلاميا دينيا حتى لا تجعل من حركتهم شعلة من نار الحماس الديني ، مما يجعل على اسرائيل أن تصون كيانها ، لان الفداء اذا تملكته عقيدة وبخاصة في المجتمعات الاسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الاخرى بما فيها الماركسية** » .

ويساعد الصهيونية في تحقيق أغراضها هذا الغزو الفكري الغربي للشرق الاسلامي العربي ، ونشوء طبقات جديدة من أبنائنا أصبحت لا ترى الحياة الا بمنظار الغرب وثقافاته وفلسفاته وفكره ، بل أصبحت ترى أن فكر بلادها وتراثها ، بل دينها عبء ثقيل عليها ، ويجب طرحه والتحرر منه وألا يبقى له أثر في حياة المسلمين المعاصرين أينما كانوا ومن هذا المنطلق الغريب وهو أثر غسل المخ الذي أجري في أوروبا وفي مدارس التبشير في بلادنا لهؤلاء الناس ، أصبحنا نجد من يصف الاسلام التقدمي العظيم بأنه دين رجعي .

الاسلام والتطور الحضاري :

وينادي آخرون من هذه الطبقات بأن الاسلام خصم للعلم ، وانه دين الغيبيات ، وانه سبب ضعف المسلمين ، يقول مثلا – كليموفتش – في كتابه – الاسلام – المطبوع في موسكو عام ١٩٥٦م : « **ان الاسلام في جوهره ما زال وما يزال عدوا للعلم** » .

ونود أن نسأل مع العقاد : هل يؤمن عقل الانسان بالدين في هذا العصر ويرى دينا أحق بالايمان من الاسلام ؟ .

ولماذا لا يؤمن عقل الانسان بالدين ؟ .. أليس أعظم رجال البحث العلمي في أوروبا كانت نفوسهم مشربة بالشعور الديني العميق ؟

على أنه لا يفوتنا أن نلفت النظر الى أن كثيرا من المؤتمرات التي تعقد في أنحاء العالم باسم الاسلام هي مؤتمرات تهدف الى تزييف تاريخ الاسلام وحضارته وأفكاره ويتصدرها المبشرون والمتعصبون من المستشرقين وتلاميذهم، ومن أجل ذلك تعمل جهات أجنبية كثيرة على التهوين من شأن الازهر وعلى خفض صوته ، وكان الاحتلال الانكليزي قد أصدر بعد عام ١٨٨٢م قرارات سرية بحرمان علماء الازهر من جميع وظائف الدولة الرسمية .

ولقد أخضع الغرب الشرق الاسلامي لماديته ولمذاهبه ولفلسفاته اللا انسانية ولالحاده ولارائه في السلوك

والاخلاق والعادات ، وخضعنا لتأثير ذلك ، لافكار الجنس والعري والربا والخمر والاستهتار وغيرها . فالربا في رأي دعاة التبعية لا يستقيم أمر العالم الا به ، واذا قرأنا لعالم فرنسي كبير مثل جاك أوستروي في كتابه ـ الاسلام أمام التطور الاقتصادي ـ الذي نشر في باريس عام ١٩٦١ م لوجدناه يقول في صفحة ١١٢ : « ان الاسلام يتمتع بامكانات هائلة ، واذا ما وجد الطريق الصحيح مفتوحا أمامه فان كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده ، ثم يرى أنه أقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الروسية والغربية . » .

ان سياسة التلفيق التي ينتهجها بعض الكتاب في كتاباتهم عن الاسلام لا ثمر لها ، فكل فكرة في الاسلام في رأيهم يجب أن تقاس بمقاييس الغرب وموازينه قياسا كاملا ، حتى تصبح مقبولة عند هؤلاء .

هذه الحضارة هي شيء مفزع ورهيب في نظر المسلم العادي ، ولكنها مع ذلك وكما يؤكد أوهى من بيت العنكبوت .

انها حضارة لا أساس لها ، مادة بلا روح ، وأهواء بلا عقيدة ، وليست تنطوي على أية نزعة انسانية أو خلقية ، وهي تقف كل لحظة أمام أبواب الفناء الذري وأكثر رؤوس الاموال التي تغذي هذه الحضارة وتدعمها هو من خيرات بلادنا المنهوبة ، ومن الارباح الربوية المكدسة في بنوك اليهود في شتى أنحاء العالم .

يقول اقبال : « مثلت حضارة الغرب دورها ، وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وسوف ينهار العالم الذي حوله مقامرو الغرب الى حانة للفساد ، ولقد رأت أوروبا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والاخلاقية والعلمية ، ولسوف تتمخض الانسانية عن عالم جديد ، وهذا العالم لا يحسن تصحيحه الا من بنى للبشرية البيت الحرام . وورث محمدا وابراهيم قيادة العالم » .

يقول غوستاف لوبون : « الحق ان أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوروبا من الاعداء ارهابا عدة قرون ، وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السابقة ، ونحن لم نتحرر من نفوذهم الا بالامس .. » ..

وقد ذعر الشاعر الايطالي المشهور بترارك ١٣٣٤ ـ ١٣٧٤ م الذي مضت على وفاته ستة قرون كاملة لسيادة الحضارة العربية وعجز العقل الاوروبي عن مجاراتها ، فقال : « يا عجبا ، لقد تساوينا نحن والاغريق وجميع الشعوب غالبا ، وسبقناها أحيانا ، الا العرب ، فيا لعبقرية ايطاليا الخامدة ، فهل قدر علينا لا نعمل شيئا بعد العرب» .

لقد وقف المفكرون الغربيون حيال الشرق العربي موقف المتعجب المذهول .

يقول غوستاف لوبون : « ان سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة » .

ويقول وولز : « الدين الحق الذي يساير المدنية هو الاسلام » .

ومن قبل قال عمر بن الخطاب خليفة المسلمين لبعض أصحابه : « لقد أعزكم الله بالاسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله » .

وقال الهرمذان الفارسي لعمر وقواده : « انما غلبتمونا بالاسلام .. » .

ونحن نقول أخيرا في كلمة موجزة قليلة : « ان الغد للاسلام » .

الدكتور عبد المنعم الخفاجي



علم رسول الله بالنازلة الجليلة ، فغشيه من الحزن ما لم يستطع رده ، وشاع في نفسه الهم الشديد حتى ليبدو للعيان في صفحة وجهه الوضاء ٠

ان بينه وبين فقيد اليوم قربة الروح والدين فوق قرابة الدم ٠٠ فالفقيد هو جعفر بن أبي طالب أحد « الرفقاء النجباء » الذين يعتز بهم ويشيد بفضلهم ، وفي سبيل دعوته الناشئة آثر الاغتراب في البلد النازح على الاذعان لاعداء الدعوة في أرض الوطن ، فتحمل بزوجه الى الحبشة ، حيث جعل الله على يديه اسلام عاهلها ومن تبعه ٠ والفقيد من أبر الناس بالمسلمين ، و « أبو المساكين» كما هو يكنيه ، وهو أحرص الناس على الاخذ بأخلاقه حتى ليبدو أشبه الناس به خلقا الى كونه أشبههم خلقا ٠

وهو بعد ابن عمه ٠٠٠

★

لقد كانت أوبة جعفر من مهاجره قريبة العهد ، فما انقضى عليها غير عام وأربعة أشهر ٠ ولقد آب يوم فتح الله على رسوله والمؤمنين حصون ــ خيبر ــ بعد عراك وجهد ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم في غمرة الافراح يقبله بين عينيه ، ويلتزمه ، ويقول : « ما أدري بأيهما أنا أسر ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » ؟ ويقول له كذلك : « أشبهتني خَلقا وخلقا »فكانت نشوة الفرح والاعتزاز بهذه العواطف وهذا التشريف تأخذ جعفرا حتى ليرقص من فرط الطرب والسعادة ٠

فوا أسفا ! أأقبل جعفر ليدبر ؟ أتحققت لقلب الرسول رجيته ليثكلها بعد حين قليل ؟ يا رحمتاه لهذا القلب !! ٠

ولقد كان جعفر أمس القريب حين خرج مع السرية يكلم رسول الله في ألا يقدّم عليه زيد بن حارثة ، لا ايثارا لنفسه على زيد ، ولكن رجاوة السبق الى لقاء المكاره في سبيل دينه ٠٠ واستصغارا للنصيب الذي فرض عليه من أعباء الجهاد ، ورغبة حارة في أحسن بلاء يتاح لمسلم ٠

فأين أمس ، حين النبي يجيبه : « امض ، فانك لا تدري أي ذلك خير » ، وحين النبي في توديعه هو والجيش وحين المسلمون ينظرون اليه والى الغزاة نظرة الامل ، ويدعون لم أطيب الدعاء ؟

أين أمس ؟٠٠ لقد كان آخر العهد وفرقة الدهر !!

وجعفر تخطفه الموت وهو يطاحن مع ثلاثة آلاف من اخوانه المسلمين مائتي ألف جمعها ــ هرقل ــ وزودها بما استطاع من عدة ٠٠

ولم يلق جعفر حتفه كما يتفق ، بل لقيه على نحو سيظل في القرون والاجيال آية مثالية باهرة ، وذكرى مروية لن تبيد ٠٠

كان زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله عليه الصلوات « حتى شاط في رماح القوم »(1) فتلقف جعفر الراية ، وانطلق يقاتل بها قتال المتشوق لاحدى الحسنيين ، حتى اذا ما ألجمه القتال اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، كيلا ينتفع بها العدو ، وما برح يقاتل ــ كما أوصى الرسول يوم هيأهم للخروج ــ « باسم الله في سبيل الله من كفر بالله » ، ولواء النبي الابيض في يمينه تباهي به ويباهي بها ٠٠ حتى جاءته ضربة أطاحت بهذه اليمين ٠٠

---

(1) : رواية بن هشام ٣/٢١٤ ، وشاط بمعنى هلك ٠

وكان طبيعيا لمن فقد يمينه أن يسلم الراية لغيره ـ ان قدر على حفظها ـ ويتخلف بعض الوقت لينظر أمره .. ولكن جعفرا الذي أعار الله حياته ، والذي لا يعرف شيئا يمنعه عن المضي في شرف الجهاد ، والذي لا يمكن أن يذل في قراع النوائب ، أخذ اللواء الكريم بشماله ، وما انفك يصاول العدو أروع الصيال مرتجزا :

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها

عليّ اذ لاقيتها ضرابها

حتى جاءته ضربة أخرى أطاحت بيساره ...

أخمدت لجعفر الصيب المنقطع ذراعاه همة ؟ أو فلت له عزمة ؟ كلا ! فهو لم يدع اللواء العزيز المزهو يسقط أو يخزى ، وانما احتضنه بعضديه ، منشورا لا يطوى ، كريما لا يهون ، والطعان تترى على جعفر فلا يوليها دبره ، وانما يتلقاها في استعذاب حتى لتبلغ جراحه بضعة وسبعين كلها فيما أقبل من بدنه ولا يزال جعفر في المعمعة يهدر بنشيده القوي : « يا حبذا الجنة واقترابها »حتى تتحقق له الشهادة، اذ يجيئه رومي فيضربه ضربة تقطعه نصفين ..

وهنالك فقط يدع الراية لمسلم ثالث ؟

هذا هو الفقيد ...

★

وأتى الرسول صلوات الله عليه الى بيت جعفر يتفقد يتامى تركهم من خلفه خضرا كأفراخ القطا ، ويعزي عن المصاب فيه شريكته المرزأة : أسماء بنت عميس ،وانه ليطلب اليها أن تأتيه ببنيها ، وهو يحبس عنها النبأ الفاجع ، ويأخذ أطفالها فيشمهم ، وينظر اليهم نظرة الاسى المرير .. فيتمثل ـ اذ يراهم ـ وجه أبيهم ـ الذي لقي حتفه وهو في غرب شبابه ، ويتمثل حلاوة أخلاقه وأنه كان يدا قوية للمسلمين على عدوهم ، وقلبا انطوت على حب الله ورسوله والاسلام لفائفه ، وأترعت بالايمان والاخلاص والعزم جوانبه ، فتفيض عيناه الشريفتان رحمة وحنانا ..

وأسماء تستوضحه : « بأبي أنت وأمي يا رسول ... ! ما يبكيك ؟ » .

وتصيح من هول ما تسمع .. ويجتمع اليها النساء ، فيعزيها الرسول ، في حنو وعطف وينهاها : « يا أسماء ! لا تقولي : هجرا ، ولا تضربي خدا » ... ويتوجه الى الله ضارعا : « اللهم قدمه الى أحسن الثواب ، وأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك في ذريته ! »

كان خطب البيت النبوي في جعفر خطبا أحسوا له جميعا لوعة متسعرة ، وانظر كيف تدخل فاطمة على أبيها رسول الله وهي تبكي وتقول : « واعماه ! » ... فيقول والاشجان ملء فؤاده : « على مثل جعفر فلتبك البواكي !! »

ويشاء الله برحمته أن يمسح بيده الاسية على قلب نبيه وآله ، وأن يعزيهم عن فجيعتهم الحمراء عزاء فذا كمصابهم الفذ ، فهذا الروح الامين ينزل على الرسول المحزون ، فيبلغه أن الله قد عوض جعفرا عن ذراعيه بجناحين مضرجين بالدماء ، يطير بهما مع الملائكة في الجنة .

يا بشرى !! وهل يبغي حبيب لحبيبه شيئا وراء ذلك ؟

ثم هذا النبي عليه الصلاة والسلام يرفع مرة رأسه الى السماء فيقول : « .. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! » فيقول الناس : « يا رسول الله ! ما كنت تصنع هذا » فيجيبهم : « مر بي جعفر بن أبي طالب في ملأ من الملائكة فسلم علي ... »

ندى هذا العزاء الالهي على الاكباد القريحة ، وصرف عنها الجزع ، ونعم الآسى آس من روح الله ، ونعم العزاء عزاء بقدر البلاء !

المرأة كما يراها أبو العلاء المعري

عامر العقاد

كان أعمى بين مبصرين ، ومبصرا بين عميان ، نظر الى الحياة بعين معنوية فرأى الخرافات فظنها دينا ، وأبصر الموت فتوهمه فناء .. ولم يكن أمامه سوى العيش بين أشباح أفكاره في جيل مستسلم لمشيئة الايام والليالي استسلام العناصر التي لا تحكمها قوة عقلية تساعدها على المشيئة والاستمرار .

ذلك هو شاعر الفلاسفة ، وفيلسوف الشعراء . أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي الشهير بالمعري . والذي طبقت شهرته الافاق ، وشغل الناس بما آتاه الله من علم باللغة لم يؤته لعالم من قبله منذ تدوين تلك اللغة حتى يوم الناس هذا ، كما قدر له أن يحيط بالعربية وأسرارها احاطة تامة ، وأن يستخدم كل ألفاظها ومعانيها في شعره ونثره وأبدع فيها كأحسن ما يكون الابداع .

باختصار ـ يمكننا أن نقول ـ انه قد اجتمع لذلك الشاعر الفيلسوف ، والفيلسوف الشاعر من اتقان العلم وسعة الثقافة ، وعمق المعرفة ما لم يجتمع لاحد من قبله . فأتى من الاراء والمناقشات للقضايا التي تشغل الفكر الانساني بما بهر العقول وحسبنا قوله عن نفسه في معرض المباهاة والاعتزاز :

واني وان كنت الاخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الاوائل

يقول ابن فضل الله العمري عن البيئة التي نشأ فيها، وعن البيت الذي ولد فيه حكيمنا الكبير وفيلسوف المعرة الشهير : « ... وأما بيته فسادة لهم الفضل برسوخ غير منسوخ منهم قضاة الامة ، والفضلاء والائمة ، والحكماء أصحاب العلوم الجمة ، والادباء الناطقون بالحكمة ، والشعراء الذين اغتصبوا من البحر دره ، ومن الفلك نجمه، والخطباء أهل الورع والاثبات الذين أحيوا السنة ، وأماتوا البدع مما لا يتسع التأليف لاحصائهم» (١) .

ففي ذلك البيت الرفيع العماد العالي البنيان عاش أبو العلاء المعري سنواته الاولى سنوات النشأة والتكوين . فتلقى علومه الاولى في « المعرة » فتعلم العربية من أهلها ، وتلقى مبادىء النحو وأصول اللغة على يد أبيه ، ثم رحل الى حلب طالبا الاستزادة على يد محمد بن عبد الله بن سعد النحوي ، ثم لم يلبث أن رحل الى بغداد ، وبقي هناك ما يقرب من السنة وسبعة أشهر اطلع خلالها على ما وجده في خزائن الكتب والاثار الادبية حتى استطاع أن يحصي علوم اللغة .. يضاف الى ذلك أنه قد استطاع أن يحصل زادا لا بأس به من علم الحديث الشريف من قبل – على أبيه وجده سليمان بن محمد ، وأخيه أبي المجد ، وجدته « أم سلمة » كما سمع أيضا من أبي زكريا يحيى التنوخي .

ويروى أنه في عام ٣٦٧هـ قد أصيب بالجدري فذهبت بعينه اليسرى ، وغشي اليمنى بياض ، فلم يعد يرى من الالوان سوى الاحمر . وظل يذكر أنه أثناء مرضه ألبسوه ثوبا مصبوغا بالعصفر (٢) وهنا يطل علينا سؤال هو : ما القول في بقية الالوان الاخرى التي ذكرها في شعره ونثره وما أكثرها ؟! ويجيب بعض حساده على ذلك السؤال بقولهم: ان الشيخ في هذا كان مقلدا لغيره ومستعيرا منه . لكننا لا نرى غضاضة في ذلك عليه لا سيما وأنه استطاع أن يبز المبصرين من شعراء عصره في دقة الوصف وحسبنا ما جاء في القصيدة الرابعة عشرة من سقط الزند من مقدرة دقيقة في الوصف حيث قال :

ليلتي هذه عروس من الز
نج عليها قلائد من جمان

وكأن الهلال يهوى الثريا
فهما للوداع معتنقان

سهيل كوجنة الحب في اللو
ن وقلب المحب في الخفقان

مستبدأ كأنه الفارس المع
لم يبدو معارض الفرسان

يسرع اللمح في احمرار كما تس
رع في اللمح مقلة الغضبان

ضرجته دما سيوف الاعادي
فبكت رحمة له الشعريان

قدماه وراءه وهو في العج
ز كساع ليست له قدمان

ثم شاب الدجى وخاف من الهج
ر فغطى المشيب بالزعفران

ويروي الذين أرخوا لسيرة حياته أنه عندما شارف على السابعة من عمره كان بصره قد ذهب كله ولم يعد يرى لا الاحمر من الالوان ولا غيره . وان كان الله سبحانه وتعالى قد عوضه عن ذلك الفقد ببصيرة نافذة تخترق حجب المرئيات والاشياء فتصل الى اللباب .. وتلك – والحق يقال – كانت آية الايات فيه وفي عظمته العقلية والفكرية والتاريخية .

لم يقف المعري أمام ذلك الحادث الذي من شأنه أن يزلزل أركان النفس مستسلما لانه – بلا ريب – يقطع عنه كل رجاء وأمل ، ولكنه استطاع بما أوتي من بصيرة حادة أن يفلسف هذا الموقف المؤلم على النفوس ويعزيها على ذلك الحرمان من نعمة البصر بنوع من التمرد فيزعم شامخا أنه ساده على ألا يرى الحياة وأشياءها المقيتة ومن ذلك قوله :

قالوا العمى منظر قبيح
قلت بفقدانكم يهون

والله ما في الوجود شيء
تأسى على فقده العيون

يقول الدكتور طه حسين « .. أظن أن العلة الحقيقية التي شقي بها أبو العلاء خمسين عاما انما هي الكبرياء ، الكبرياء التي دفعته الى محاولة ما لا يطيق ، والى الطمع فيما لا مطمع فيه ، والى الطموح الى ما لا مطمح اليه .. ؟(٣) .

وعلى أية حال فان التاريخ الانساني يحدثنا عن الكثيرين الذين لا يحدهم الحصر من الذين نبغوا في مختلف الفنون رغم فقدانهم نعمة البصر . فلم تكن العاهة في يوم من الايام لتحول بينهم وبين النبوغ ، بل انها كثيرا ما قوت عندهم فاعلية الحواس الاخرى . وقد علل البعض ذلك بقولهم : انه كثيرا ما يحول فقد البصر دون شرود التفكير ، فيضطر الشخص الى حصر انتباهه فيما يسمعه أو يلمسه .

وبلا ريب كان شيخ المعرة واحدا من تلك القلة العظيمة من عظماء التاريخ الانساني الذين حرموا نعمة البصر ، ومع ذلك استطاعوا أن يرغموا التاريخ على أن يطأطىء هامته ويفسح لهم في الشهرة والمجد ثم الخلود في نهاية المطاف . ولا غضاضة في أن نستعرض هنا أسماء بعض من شاركوا أبا العلاء في تلك المحنة ولم تستطع أن تحول دون شهرتهم التي طبقت الافاق فحفظت الانسانية أشعارهم ورددت أقوالهم ومأثوراتهم .

فأول شعراء التاريخ في عالم العميان « الشاعر اليوناني هيوميروس صاحب أناشيد الالياذة والاوديسة ، ومن الشعراء العميان في الجاهلية معن بن أوس ، وفي الاسلام حسان بن ثابت ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبو العيناء محمد بن قاسم ، والمؤمل ، وسليمان بن مسلم بن الوليد وهو ابن صريع الغواني ، وموفق الدين مظفر المضري ، والعكوك علي بن جبلة وأبو الزهر ثابت الهجاء ، ومحمد بن خلصة النحوي وبشار ابن برد . »(٤) .

لقد شارك المعري في ذلك كل هؤلاء فلم تقف محنة فقد البصر دون نبوغهم وذيوع شهرتهم . بل هناك منهم من اتخذ من تلك المحنة « العاهة » منطلقا ومدعاة للفخر والمباهاة بالذكاء ، والعلو على نظرة الناس العادية لها ويقف على أكتاف هؤلاء بشار بن برد الذي يقول :

اذا ولد المولود أعمى وجدته
وجدك أهدى من بصير وأحولا
عميت جنينا والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم مؤئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا
بقلب اذا ما ضيع الناس حصلا

ماذا كان « أبو معاذ (٥) ؟ قد رأى أن الذكاء من العمى ، فان ذكاء شيخ المعرة كان مضربا للمثل . فقد روي عن ذكائه أنه عندما رحل الى بغداد طلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد ، فأدخل اليها ، وجعل لا يقرأ عليه كتاب الا حفظ جميع ما يقرأ عليه ، وقيل له : بم بلغت هذه الرتبة من العلم ؟ قال : ما سمعت شيئا الا حفظته ، وما حفظت شيئا فأنسيته .

وقيل كذلك أن حفظه لم يقتصر على العربية وما يسمعه منا بل بلغ من قوة هذه الملكة عنده أنه كان يحفظ كل ما يتلى عليه أو يقال أمامه بأية لغة غير العربية .

روى أحد مؤرخيه أنه كان يسمع بأخباره وبما تفرد به من ملكة في الحفظ . فحضر اليه وكان يصحب معه واحدا من أقربائه ، وكان بصدد أشغال يحتاج اليها في سفره فحدث ذلك القريب عنها باللسان الفارسي وأرشده الى ما يعلمه فيها خلال جلستيهما مع المعري . وبعدها جاذب ذلك المؤرخ أبا العلاء الحديث الى أن ذكر له ما سمعه عن سرعة حفظه لما يسمع ، وتفرده في هذه الخصيصة فسأل أبا العلاء أن يريه ما يحكيه عنه . فقاله له: خذ كتابا من هذه الخزانة القريبة منك فاذكر أوله ، فأورده عليك حفظا .

ـ فقال الرجل له : لكن كتابك هذا ليس بغريب عنك ان حفظته !

عندئذ قل المعري له : لقد دار بينك وبين من معك منذ لحظات كلام بالفارسية ٠ ان شئت أعدته عليك ٠

فقال الرجل والدهشة تعلو وجهه : أعده فأعاده عليه وما أخل منه بحرف ٠

وذكر ابن حجة في ثمرات الاوراق أن الشعراء كانوا يأتون أبا العلاء يعرضون عليه أشعارهم ٠ فوفد عليه مرة أبو نصر أحمد بن يوسف المنازي ومعه جماعة من أهل الادب فأنشدوه ، وأنشده المنازي أبياته :

وقانا لفحة الرمضاء واد
وقاه مضاعف النبت العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم

فقال له أبو العلاء : أشعر من بالشام ٠

وغاب المنازي مدة في العراق كان فيها وزيرا ، ثم عاد الى الشام بعد عشرة أعوام فدخل على أبي العلاء مع جماعة من الشعراء فأنشدوه وأنشد المنازي وهو لا يعرفه :

لقد عرض الحمام بسجع
اذا أصغى له ركب تلاحى
شجا قلب الخلي فقيل غنى
وبرح بالشجى فقيل ناحا
وكم للشوق في أحشاء صب
اذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى
وسكران الفؤاد وان تصاحى

بذاك بنو الهوى سكرى صحاة
كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق ٠ عطفا على قوله السابق : ومن بالشام ٠

بعد تلك السطور الخاطفة عن سيرة المعري ومكانته وقوة الحافظة خاصة عنده ٠ نعود الى سياق موضوع مقالنا الاصلي والذي اتخذناه عنوانا لهذه الدراسة التي نتقدم بها بين يدي القارىء عن أحد الجوانب المعرية المترامية الاطراف ٠ وأعني بها المرأة وكيف كان يراها ذلك الزاهد الفيلسوف ، وذاك المتمرد الشاعر ٠

فمن المعروف المتواتر عن المرأة أنها تزهو دائما بما يقال فيها حمدا كان أم ذما ٠ فليس أحب الى نفسها ، وأرضى لغرورها من أن تكون شغل الرجل الشاغل ٠ اذ يستوي لديها العابد لها ، والناقم عليها ما دام يصدر في شعوره عن وجودها ، ولعلها في قرارة النفس ـ رغم تصنعها الغضب في كثير من الاحيان ـ أشد استمتاعا بلعنة من يلعنونها لما في ذلك من اعتراف صارخ بخطر ذلك السلطان الذي لها بين عالم الذكور من الرجال ٠ وبروعة تلك الفتنة التي حبتها اياها الطبيعة فجعلت منها محط أنظار الرجل واهتمامه منذ دبت الحياة على الارض ٠

وأبو العلاء في طليعة الناقمين على المرأة وبنات جنسها ، بل يرى أن السعادة فقدت كل عناصرها السارة عندما خلق الله المرأة وحسبنا ما قاله في لزومياته ٠

بدء السعادة ان لم تخلق امرأة

ولا يفهم من هذا أن شيخ المعرة وحكيمها كان جامد الطبع ، ناضب العاطفة أو أنه كان مسلوب الشعور بما في المرأة من جاذبية وفتنة ٠ وانما كان على نقيض ذلك ٠ ومرجع ذلك الى شدة حسه وادراكه لما آتاها الله من دولة تأمر فيها وسلطان يقهر عالم الرجال ٠٠ كل ذلك أحس به

في أعماق نفسه · ويتضح ذلك من تائيته الشهيرة التي يقول فيها متمثلا بنات حواء بصورة تشبه ما تكون عليه عند أشد الرجال تعلقا بهن وأصباهم اليهن :

تأود منك عقلا في سكون
غصون خواطر متأودات
فلا يجلس على الصعدات لاه
فأنفاس الفتى متصعدات
تمر به حوالك فوق بيض
وخضر في العقيق مسبدات
ومن تخلقه أيام طوال
فان شجونه متجددات
وتسنح بالضحى ظبيات مرد
بكل عظيمة متمردات
وقد أغمدن في أرز ولكن
سيوف لحاظهن موردات
ومن فقد الشبيبة فالغواني
له عند الورود مصردات
هواجر في التيقظ أو عوامي
وفي طيف الكرى متعهدات
اذا سهدنة بطويل هجر
فما اجفانهن مسهدات
خواطيء غير أسهمها خواط
لكل كبيرة متعمدات

فهنا نرى أبا العلاء أمام بنات حواء وقد طلعن كالظبيات في لحظهن ولفتاتهن فغدون متخطرات متأوهات كالاغصان وهن رافلات في الوشى من الثياب وقد علا الشباب خدودهن بلونه الوردي الجميل وبقدودهن منهدات في الارز الضيقة · وقد أغمدن لحاظهن كأنها الاسياف عند تجريدها·

أليست تلك هي صورة المرأة في أجل فتنتها وأحفل زينتها ؟! لقد دفع كل ذلك بأبي العلاء ـ بعد أن طال التأمل ـ ببصيرته الى أن يدرك بسهولة ويسر سلاح الغواية الذي زودت الطبيعة به المرأة فحذرها ذلك الحذر ، وزاد على ذلك أن حذر الناس منها ومن خطورة ذلك السلاح ·

الا أن تلك الصورة الشعرية المعرية على كل ما فيها من تصوير دقيق للفتنة ، ووصف لمحاسن جسد المرأة قد وقفت عند ذلك الحد ولم تتعده ·فلم تتعمق في مزايا المرأة الاخرى وأعني بها المزايا الخلقية والشمائل النفسية · ومن هنا جاءت تلك النظرة واقتصر عليها معظم شعره في المرأة والدليل على ذلك أننا لم نره يشير ولو مرة واحدة الى ذلك التعاطف ·· والى حديث القلب للقلب أو امتزاج الشعور بين المرأة وبين الرجل وحسبنا قوله :

وما الغواني الغوادي في ملاعبها
الا خيالات وقت أشبهت لعبا

بل تبلغ قسوة المعري شأوها عندما يصور النساء فيقول في وصفهن :

الا أن النساء حبال غي
بهن يضيع العقل التليد

لقد كان لكل تلك الاحاسيس التي أحسها شيخ المعرة تجاه المرأة أن حكم بأنها تريد الشباب القوي دون الشيخ الهرم ، وتريد الوجيه الغني دون الفقير المعدم ، وتريد أن يفرغ الرجل لها ولا يشغله عنها شاغل · انها لا تصغي لصوت غير صوت الغريزة · ويؤيد هذه النظرة العلائية الثاقبة ما ذهب اليه العقاد في أحد مؤلفاته وهو يتحدث عن المرأة وعن دور الغريزة عندها فيقول :

« فالخلق الذي تتحلى به المرأة بداهة هو خلق الغريزة الذي يوشك أن يشمل أناث الحيوان ·· وكل خلق ارادي تتخلق به بعد ذلك فهو فريضة عليها من الرجال تجاريهم فيه على ديدن المحاكاة والمطاوعة سواء فهمت أو جهلت كنهه ومرماه · ولهذا يكثر في النساء من يتقيدن بالعرف القديم· لان قوام العرف القديم عادات ومصطلحات هي أقرب الى

الغريزة الآلية من فضائل الفهم والارادة • ويندر جدا من تتحدى العرف بفضيلة واحدة من فضائل الاختيار •»(٦)

وقد سبق الاديب المصري الكبير شاعر المعرة وحكيمها في لزومياته قديما حينما قال :

اذا خطب الزهراء شيخ له غنى
وناشيء عدم آثرت من تعانق
وقل غناء عن فتاة وزوجها
أخو هرم أحجالها والمخالق

وقد أيدت الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة ما للغريزة وما لفعلها على المرأة وأثرها بما لا يدع مجالا للمكابرة والمجادلات التي لا طائل تحتها أو من ورائها • فالمرأة في أظهر غرائزها طالبة للحظوة في أعين الرجال ، وحريصة على أن تشوقهم اليها • فلا يقنعها من الرجال أن يعجبوا بها لرأي تبديه أو لعلم أو فن تبرع فيه بقدر ما تفتنهم بحسنها وبجسدها • وهي في ذلك أقرب تلبية لدواعي الطبيعة والواقع • وقد قال ـ ج هيمانس ـ في كتابه سيكلوجية المرأة « أن الغناء من الصفات التي تبدو واضحة في الانثى ، وهي التي تدفعها دائما الى الترفق والتداعي وتسعد المرأة بوصفها بها وتعير بفقدها » •

ولا يفوتنا هنا أن نستشهد بشعر شاعرة مصرية معاصرة وهي تؤكد ما ذهب اليه علماء النفس أبلغ تأكيد وأتمه حينما تصف لنا قلب المرأة بأنه مغرور مشبوب بالخيال • حيران يجهل ما يريد ونعني بها الشاعرة جليلة رضا التي تقول :

لكن قلب المرأة المغرور مشبوب بالخيال
حيران يجهل ما يريد ولا يكف عن السؤال
ويظل يستوحي الملال ، بحب تعذيب الرجال

وقد يقال أن هذه الشاعرة منفردة بذلك الشعور بالغناء في الحب غير أننا نرى شاعرة أخرى هي ـ روحية القليني ـ تصنع في شعرها هذا التصنيع • فهي تسقط من عمرها الايام التي لا يتحدث فيها اليها من تحبه وتهواه وترى أن السعادة بعيدة عنها في تلك الحال • فهي تقول في قصيدة تحت عنوان ـ التليفون ـ من ديوانها ـ همسة الروح ـ :

وتسرع دقات الفؤاد قوية
اذا ما سمعت الصوت للقلب داعيا
وان مر يوم لم يحدث حسبته
من العمر والايام والسعد لاغيا

ومن ذلك كله كان انطلاق حكيم المعرة عندما نادى الى وجوب احتجاب المرأة في خدرها خشية مما يحدث ان خرجت سافرة مما لا تحمد عقباه فيقول :

وأرى العروس تحجبت في دارها
كمعرس الآساد في الاخدار

وحتى قضية الجوار فالمعري كان يخشى منه على المرأة حتى ولو حسن ذلك الجوار فنراه يوصي بأن يكون أشبه بتجاور العينين ولكن الخوف كل الخوف أن يتلاقيا ، بل طالب بعدم السماح لها بالصعود الى السطوح خشية أن تتكلم مع جارها في تستر وفي خفاء من الرقباء ، ولم يدع الجار نفسه دون أن يهيب به في تلطف فيقول :

اذا شئت أن ترقى جدارك مرة
لامر ، فآذن جار بيتك من قبل
لا تفجأنه بالطلوع فربما
أصاب الفتى من هتك جارته خبل

ولم يفت أبو العلاء بعد ذلك الوصف المحصن الدقيق أن يوجه نصيحته ـ لام البنات ـ توجسة من سماحها لبنات بالخروج من البيت مهما قدمن من أعذار فيخرجن متبرجا ومبديات زينتهن وهن لابسات الحجول والاساور ، أو رافلا في الدمقس والحرير فيقول صادقا المشورة :

نصحتك يا أم البنات فحاذري
وساس ولاج الاساود خناس

ولا تلبسي الحجلين بنتك والبرى
لتشهد عرسا ، واشغليها بعرناس

خلاصة الخلاصات في موقف أبي العلاء من قضية المرأة أنه رأى ما ساد عصره من فجور ، وما لمسه من قبل عند زيارته لبغداد وكيف كانت الاباحية الخلقية ، والفساد الاجتماعي يسد كل طريق وكانت المرأة هي محور المجالس التي قامت هناك للهو والعبث . وكثيرا ما كانت أخبار أصحاب الغزل تنقل اليه وهو قابع في دارته يتأمل وينشد .. وذات مرة جاءته الاخبار بأن أصحاب الغزل من الرجال قد دأبوا على ترصد النساء خلال ذهابهن للحمامات العامة فأنشد قائلا :

لا تلجي الحمام ، قد جاء ناصح
بتحريمه من قبل أن يفسد الناس
فكيف به لما اغتدى في طريقه
رجيب ، وحواش ، وتبخ وأشناس
تمازج بالعرب الاعاجم ، والتقي
على الغدر أنواع تذم وأجناس

وقد بلغت مأساة ذلك المجتمع عندما سادته الكثير من الخرافات التي آمن الناس بها عامة ، والمرأة على وجه خاص . فأخذت تلجأ الى العراف والمنجم رغبة منها في التوصل الى عطف الحبيب المهاجر أو تهييج الخل الغائب فانبرى المعري مجندا نفسه لمحاربة تلك البدع ومحذرا المرأة من التمادي فيها والجري وراءها . فكشف لهن في أشعاره ذلك الكذب الذي يأتيه العراف . وأنه لا يقف الشره به عند الكسب الحرام وعند ابتزاز المال وامترائه منهن بل ربما تعداه الى الطمع فيها ذاتها لتوافقه على اتيان القبيح من الاعمال ومن ذلك قوله :

اذا ابتكرت الى العراف فاعرف
وكان غصا تصك به قراها
وحذرها المنجم فهو ذئب
تشوقه الضوائن ان يراها
فان هي لم تجبه الى قبيح
تحلبها المنافع وامتراها

وعلى الرغم من تلك القسوة ، وذلك العنف على المرأة والحكم عليها ذلك الحكم الذي كاد أن يشمل شعره كلها عنها . فان حالة المجتمع الذي عاش فيه المعري وما طرأ عليه من قلاقل وتصارعات لتعد مسؤولة مسؤولية كبرى عن النظرة وذلك الرأي عند صدوره عنه .

الا أننا يجدر بنا أن نقف لحظات ، بل نطيل الوقوف عندما نرى المعري يأتي في بعض أشعاره لا سيما اللزوميات على ذكر المرأة الام فيذكرها ويذكر ما لها من فضل على الابناء فينادي باحترامها واكرامها فيقول :

العيش ماض ، فاكرم والديك به
والام أولى باكرام واحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه
أمران بالفضل نالا كل انسان

ويجدر بنا ـ أيضا ـ أن نذكر لشيخ المعرة تلك اللطافة الحسية وتلك السماحة حينما صور السعادة الزوجية الموفقة فشبهها بجنة الرجل الاولى .. ولا شك في أنه كان موفقا غاية التوفيق في ذلك التشبيه فيقول :

وجنتك الاولى عروسك وافقت
رضاك ، فان أجنك فاجن ثمارها

ومما يذكر لحكيم المعرة في هذا الشأن أنه قد وقف من قضية تعدد الزوجات موقفا لا يستغرب من حكيم فيلسوف ، أو شاعر حكيم كأبي العلاء فانه كان من المعارضين له ويرى أنه غير محمود العاقبة . لذلك أخذ ينذر ويوضح ما فيه من ضرر وظلم للمرأة ، وجرح لعزتها وشعورها فحث الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة فقال :

وواحدة كفتك ، فلا تجاوز
الى أخرى تجيء بمؤلمات

بل نراه يذهب في نظرته لتلك المشكلة الاجتماعية الى أكثر من هذا فيرى فيه نوعا من الغبن والمجافاة للعدل في المعاملة فيقول ساخرا :

تزوج بعد واحدة ثلاثا
وقال لعرسه : يكفيك ربعي

فيرضيها اذا قنعت بقوت
ويرجمها اذا مالت لتبع !

ومن جمع اثنتين فما توخى
سبيل الحق في خمس وربع

هنا بلا ريب ـ يبدي أبو العلاء من اشفاق المشفقين على المرأة . فهي في أيامنا هذه تطالب باعادة النظر في قوانين الاحوال الشخصية . بل ذهبت بعض النساء الى المطالبة بتقييد حرية الرجل في مسألة تعدد الزوجات . ألسن في هذا بمسبوقات من شيخ المعرة قديما . ؟!

فاذا جاءت في بعض قصائد أبي العلاء لعنة للمرأة فالذي نرجحه أن الشيخ لم يكن يقصد من ورائها أن يسيء الى المرأة لا سيما وأنه قد استطاع بما آتاه الله من شمول عقلي أن يدرك أنها هي أساس في بقاء الحياة وتجددها . فهو عندما يقول أن الوظيفة الجنسية شغل المرأة الشاغل انما يقرر واقعا مألوفا . ذلك لانه حكم الطبيعة في مجتمع الاحياء ، والسبيل الى النسل ، وبقاء النوع الانساني . فاذا كان ذلك يلاقي الضيق أو الغضب من الشيخ لدى بعض بنات حواء فيجب على أولئك البعض أن يستحضرن في أخلادهن أنه كان يقف على أكتاف زمرة من العظماء الذين غلبت عليهم وعلى سلوكهم شهرة التشاؤم والتطير .

يقول الاستاذ علي أدهم في مقال له في هذا الشأن :

« ولما كانت المرأة هي التي تفتن ألباب الرجال وتأسر قلوبهم ، وتوحي الى نفوسهم الحب وتغمرها بالامل والاستبشار ، وهي الامينة على النسل لتأييد النوع ، لذلك عرف المتشائمون شدة خطرها على قضيتهم وناصبوها العداء ، وغالوا في ذمها .. »(٧) .

وعلى أية حال لم تكن المرأة هي وحدها التي لحقت بها مذمة شيخ المعرة فيما نقل الينا من أشعاره الخالدة .. فانه قد ذم الناس جميعا غير مستثن نفسه من ذلك الذم ، وذلك الهجاء المر فيقول :

بني الدهر ،مهلا !ان ذممت فعالكم
فانني بنفسي لا محالة أبدا

ان النظرة الفاحصة المدققة في هذا الرأي لابي العلاء وفي بعض آرائه الاخرى في المرأة يوقفنا على أنه حينما ذم المرأة لم يمدح غيرها شأن معظم المتشائمين في هذه الحياة من الشعراء والفلاسفة .. فهو نوع من التشاؤم شمل الدنيا بأسرها ولم يغير دوران الليل أو النهار ، ولم يبدله قوم أو جنس من الاجناس فالذي يقول عن الاحياء طرا :

فأف لعصريهم نهار وحندس
وجنس رجال منهم ونساء

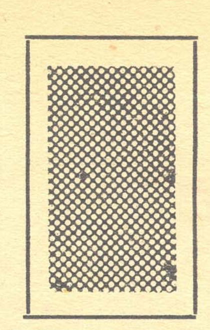
أو من يصف الناس جميعا فيقول :

وكلنا قوم سوء لا أخص به
بعض الانام ولكن أجمع الفرقا

لا نستغرب قسوته على حواء وبنات جنسها . لقد أقام أبو العلاء أذنيه مقام عينيه ، فعرف الكثير من شؤون الحياة ومجتمعه فجاءت تلك المعرفة مطابقة للواقع وحقائق الامور ... لقد كان مصلحا يحمل غصة أليمة لم يزحزها من حلقه غير الموت بعد أن خلف للانسانية سجلا صحيحا لاوهامها .. ومع كل ذلك فقد استطاع ذلك السجل الحافل أن يعيش على ألسنة الناس أكثر من ألف سنة أو يزيد في المشرق والمغرب بل العالم أجمع فحق له بذلك أن يتسنم فيهم مقعد الخلود .

---

١ ـ مسالك الابصار لابي فضل الله العمري .
٢ ـ صبغ أصفر اللون يميل الى الحمرة . المنجد في اللغة .
٣ ـ مع أبي العلاء في سجنه . الطبعة الاولى دار المعارف القاهرة صفحة ٤١ .
٤ ـ مقدمة ديوان بشار بن برد تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ومنشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر صفحة ١٨ .
٥ ـ كنية لبشار بن برد .
٦ ـ هذه الشجرة للعقاد ط أولى دار سعد مصر الفجالة صفحة ١٢٢
٧ ـ مجلة الهلال المجلد السادس والاربعون يوليو ١٩٣٨ مقال علي أدهم في ـ فلسفة التشاؤم ـ .



سيبقى على السفح مشوارنا

نجم الدين الصالح

تعريت في مقلتي فانحنت   كأم رؤوم على بكرها

وسلسلتها أدمعا حلوة   أشم شفوفك في عطرها

فيا لشباك تضم الظباء ··   وتعجز : تعجز عن أسرها

تشد شبابي كأغنية   تلوب على فنني صدرها

فأية سلطانة تستبد   ·· ، وأي أسير على اثرها

تسربل بالاثم تفاحها   ونام الخلود على وترها

أما زال ديان جناتنا   يروم قصاصي عن وزرها

يدب الحريق مواويل في   جناحي يفتش عن زهرها

وأبقى كبرق غريب الرياح   يهيم على شاطيء درّها

فماذا عليّ اذا ما فضضت   وشاح الالوهة عن خصرها

واما حملت الى كل أفق   أغاني الخمائل من شعرها

أعب فلا تشبع هذي الكؤوس ، وهذي الشرايين من خمرها

وأنقش : أنقش كل الرموش ، وكل الحروف على جسرها

وتبقى القوافي شموعا هناك تضيء لمن يسأل عن أمرها

سيبقى على السفح مشوارنا يرش الخميلة من سحرها

وتنقر أحلى العصافير ما تبقى هنالك ··· من نثرها

·· ، وحين أعرش خلف النجوم سينبش هدبي عن غورها

وعن كرمة عتقت لم تكن   لترضى الالوهة عن صهرها

وعن حلمة كلما تشرئب   تلذع روحي في جمرها

فيا رب هل كان وهج العقيق   ·· ليمرغ الا على ثغرها

وهل كان ليل يظلل جرحي ··   ·· الا المهدهد من شعرها

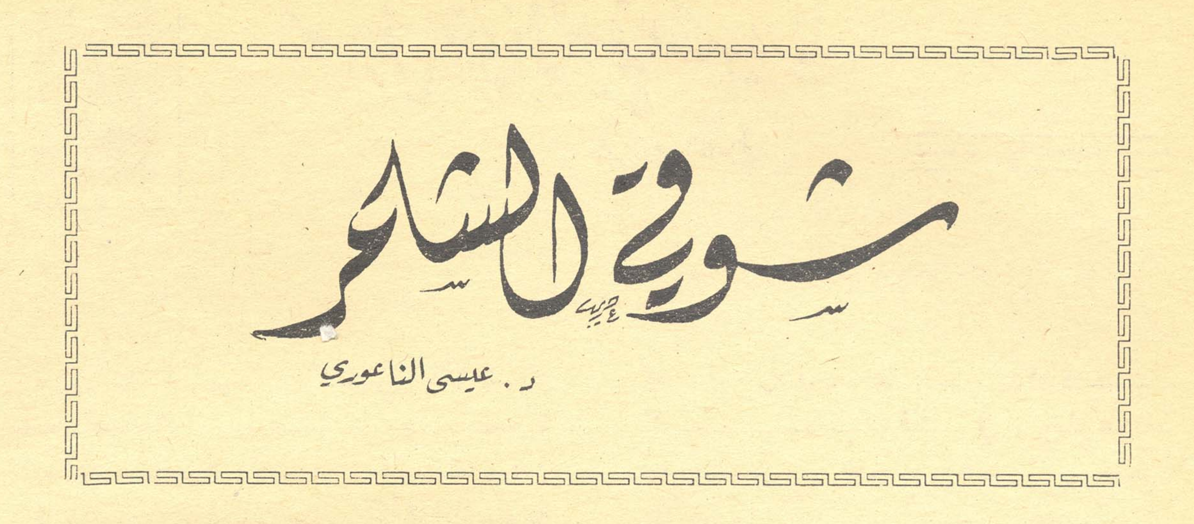
فاني سأهدم قصر الشموس   وأنهب ما شئت من درّها

واني سأحرق كل الدروب   وأرشف ما أرفض من خمرها

سأمحو الزمان بريشة هدب ، وأحيى الغواية في طهرها

وسوف تموت شموس الشموس   ويبقى سراجي في خدرها

نجم الدين الصالح



لشوقي في أدبه ثلاث شخصيات متباينة ، تكاد لا تلتقي احداهن مع الاخرى في شيء من المزايا ، فهناك شوقي الشاعر وشوقي الموظف الرسمي ، وشوقي المقلد المرغم ٠ أو بتعبير آخر هناك شوقي الاديب المجدد ،الذي درس في فرنسا وتعرف الى آداب الغرب عن كثب ، فعرف كيف يكون الاديب القوي، وشوقي الذي شاءت الظروف أن يعيش موظفـا رسميا في البلاط الخديوي ، وتكون وظيفته نظم الكلام في المناسبات الرسمية وفي مجاملات كبار رجال الدولة وغيرهم ، بموجب عروض الفراهيدي وعلى حسب مقتضيات الاحوال، لابموجب طبيعة الشاعر ، وشوقي الذي دفع في أدبه الضريبة لجيلـه وبيئته اذ شاء أن يثبت لاهل زمانه سعة اطلاعه على لغـة الزمخشري ـ صاحب (أطباق الذهب) والحريري صاحب المقامات ، وعلى قواعد سيبويه والاخفش ، فألف للناس (أسواق الذهب) بلغة المقامات ، ولغة المواعظ الزمخشرية، كما ألف الكثير من قصائده بألفاظ قديمة ضخمة ٠

ونحن لا يعنينا من شوقي سوى الجانب الاول ، أو الشخصية الاولى ، لاننا مضطرون الى التماس المعاذير لشوقي صاحب الشخصيتين الاخريين ، التافهتين بالنسبة الينـا ، وبالنسبة الى ما نفهمه اليوم من معنى الادب ، وتتلخص هذه المعاذير في أن شوقي كان ربيبا للبلاط المصري : عاش في كنف أصحابه ، وتعلم في مصر وأوروبة على نفقتهم ، وحين أنهى دراسته في أوروبة عاد ليجعل قلمه في خدمتهم ، عرفانا لفضـلهم ٠

ثم ان شوقي قد جاء في جيل جاهل ، كان أغلب أهله يعدون من يفك الحرف علاّمة العصر ، والبعض المتعلمون يحسبون أن من يخرج على روح القديم وأسلوبه لا قيمـة لادبه وشعره ، فكان شوقي لذلك مضطرا الى حشو شعره بالقديم من المعاني والتعابير ، والى اطالة قصائده الى حـد ممل ، ليثبت للناس براعته في اللغة والعروض ، ومقدرته النادرة على تذليلها لموهبته في النظم ، وبغير ذلك ما كان يمكنه أن يبني المكانة الادبية التي وصل اليها ٠ ولكنه ـ

وهنا تظهر طبيعة الشاعر المتفوق فيه ــ كان يغتنم كل فرصة سانحة ، ليلقح هذا القديم ، الذي يضطر اليه مسايرة للبيئة الجاهلة ، بلقاح من طبيعته الموهوبة ، وفهمه الحديث للادب والشعر ٠

فشوقي اذن شاعر حق في بعض جوانب شخصيته ، أو على الاصح في بعض شخصياته ٠ فأين نجد شاعرية شوقي الحقيقية ؟

من شاء أن يعرف شوقي الشاعر في أروع معاني شاعريته وأقواها فليدرسه في قصائده العديدة التي انطلق فيها على سجيته ، والتي أنشأها ليرضي طبيعته الشعرية الموهوبة ، وليدرسه في مسرحياته ، وهي الفن الجديد الذي أدخله شوقي على الشعر العربي الحديث، ولم يصل فيه أحد قبله الى ما وصل اليه من التوفيق ، ثم فليدرسه في الحكايات الشعرية التي أنشأها على ألسنة الحيوانات والطير ، فخدم بها المدارس أعظم خدمة ، كما أدى بها رسالة الادب في الاصلاح الخلقي والاجتماعي ، وفي التهذيب القومي ٠

هنا تظهر شاعرية شوقي على أتمها ٠ وأما القصائد التي كان شوقي عندما يهم بنظمها ، يرى بحياله جماهير من الخلق شاخصة اليه بأبصارها وأسماعها ، بعضهم ليهتف له ، محييا فيه شاعر الملوك والامراء ،مهما يكن نوع الشعر الذي ينظمه ، وبعضهم ليتسقط له الهفوات اللغوية أو العروضية فيقيم عليه النكير لاجلها ، والبعض الثالث ليقع على معنى لا يروقه ، أو على عبارة لم يستقم أداؤها ، فيتخذ منها حجة لتجريده من كل مزايا الشاعر ، أما هذه القصائد ــ وهي أكثر شعر شوقي مع الاسف الشديد ، اذ أننا ندخل فيها قصائد المناسبات كلها من مدائح ومراث وتهاني وغيرها ــ فلا قيمة لها في رأينا ، لا من ناحيتها الشعرية الفنية ، ولا من ناحية دلالتها على ملكة شعرية صحيحة ، فلم يكن شوقي ينظمها ليرضي شعوره ، وطبيعة الشاعر فيه ، وانما ليرضي الناس فقط ، كان يبذل فيها كل جهد ممكن لتأتي مرضية للجميع ــ وهذا مستحيل ــ مرضية للملوك والعظماء الذين هو خادمهم وصديقهم ،وينتظرون منه دائما أن يكون لسانهم المبدع وترجمانهم الامين ، ومرضية لاحفاد سيبويه والفراهيدي ، لئلا يقعوا لديه على هفوة عروضية ، أو لغوية ، ومرضية للنقاد ــ وأسميهم على الاصح بالحساد ــ فلا يقعون فيها على مغمز يتخذون منه ذريعة لهم للنيل من مكانة شوقي وشاعريته ٠

وشوقي كان كثير النقاد والحساد ، فلقد لاحقه العقاد حتى كلّ قلمه من الملاحقة ، وطارده كذلك المازني ، والرافعي ، وطه حسين ، وغيرهم ، وانتقدوه نقدا طويلا عنيفا ، ولكن هؤلاء جميعا لم ينالوا الا من شعر شوقي الموظف الرسمي ، وشوقي المقلد المرغم ، بينما عاش شوقي الشاعر قويا منتصرا ، ومات كل ما قيل فيه من نقد ٠

ولقد كان الحسد لسببين ، الاول : ان شوقي كان شاعرا عظيما ــ ولا أقول فحلا لان الفحولة صفة حيوانية لا أستسيغ وصف الانسان الممتاز بها ــ والعظيم دائما عرضة للحسد ، والثاني انه كان شاعر الملوك والامراء ، وتلك مكانة يحلم بها ويطمح اليها كل من يحمل يراعا ويجمجم بتفاعيل ، وهي تشق المرائر غيظا وحسدا ٠ ثم زاد على ذلك سبب ثالث ، كان ثالثة الاثافي في مضاعفة الحاسدين وحسدهم ، وهو مبايعته بأمارة الشعر ، والمبايعة بامارة الشعر هي بدعة سخيفة جدا ،لا نعرف أن التاريخ سجل مثلها من قبل ، ولا ندري كيف أقدم عليها أدباء العالم العربي ، ولكنها على ما فيها من سخف كثير ، لا تخلو من الدلالة على شيء كثير ، فما يمكن أن يجمع عقلاء الامة العربية وشعراؤها وكتابها على مبايعة انسان بامارة الشعر عبثا ، فلا بد أن يكون لدى الرجل شيء لا يوجد عند سواه ، والا فلماذا يبايع دون سواه ، وهذان حافظ ابراهيم وخليل مطران يملآن

الدنيا ويشغلان الناس بشعرهما ، وهما ينافسانه بكل ما في وسعهما ، ويشد أزرهما جمهور كبير من الكتاب والنقاد ، ولكنهما لا يصلان الى شيء كبير من النجاح ، ثم هؤلاء الكاظمي ، والزهاوي ، والرصافي ، واسماعيل صبري ، وحنفي ناصف ، وشكيب أرسلان ، والرافعي ، وغيرهم كثير، يملأون الصحف والمحافل بشعرهم ونثرهم فلا يفكر انسان بمبايعة أحدهم بامارة الشعر ؟

لقد كان شوقي أرسخ من هؤلاء جميعا في الشاعرية ، وأبعد شأوا · والذي أحدثه هو في الشعر لم يحدثه واحد من كل ابناء جيله الادبي ·

كان يجري مع القديم ـ الاساليب والتعابير والالفاظ القديمة ـ على مقياس واسع ، ولكنه الى جانب ذلك كان حريصا على أن يلقح هذا القديم بلقاح الروح الادبية العصرية على مقياس واسع أيضا ، حينما تسمح له الظروف بأن يطلق نفسه على سجيتها وشاعريته على طبيعتها ، والشاعر كالبلبل ، لا تنطلق من حنجرته الاغاريد الصافية الا في الاجواء الحرة ·

فشعر شوقي من هذه الناحية ، هو فترة التحول الجدي من القديم الى الجديد ، أو هو حد فاصل بين عهد الانحطاط والعصور القديمة السابقة ، وعهد النهضة الحديثة في الشعر العربي · وهذا ظاهرة في شعره لكل ذي بصيرة ·

ولنطرح الان شخصيتي شوقي الضعيفتين : شخصية الموظف الذي تقوم وظيفته بنظم الشعر في المناسبات ، وشخصية المقلد المرغم ، ولننظر في شخصية الشاعر فيه ، فماذا نجد ؟

الشعر عندنا يتتألف من عنصرين : العنصر الاول هو الفكرة ، أو الاحساس أو الصورة ، التي هي موضوع القصيدة ومحورها ، والعنصر الثاني هو الاسلوب الشعري ، أو الصورة الخارجية للقصيدة ، أو سمه أيضا أداء القصيدة بالالفاظ ·

أما العنصر الاول فيشترك بين الشعر والنثر على السواء ، لان المرء لا يكتب الا وفي نفسه موضوع يكتب فيه وهو فكرة أو احساس أو صورة ، وأما الاسلوب الادائي فهو في النثر غيره في الشعر ، فالنثر بحكم انطلاقه من الوزن والقافية ، أقدر على الاتساع لكل لفظة يراد وضعها فيه ، ومجال التفنن فيه أرحب وأيسر لكل ذي قلم سلس · وأما الشعر فله مزايا خاصة لا يستقيم من دونها ، فلا بد له مع حكم الوزن والقافية من موهبة فنية لاستعمال اللفظة الشعرية المناسبة ، ولمعرفة مكانها ، ومدى قوتها في الدلالة على معناها واثارة الاحساس به ، ومقدار انسجامها مع ما قبلها وما بعدها ، ليجتمع للعبارة الشعرية النظم والصورة والاحساس المؤثر ، واللون الفني · واذا لم تجتمع هذه الخصائص كلها ـ أو أغلبها على الاقل ـ للشاعر فهو ناثر يأبى الا أن يجعل لنثره وزنا وقافية · ولما كان الشعر فنا جميلا ، فلا بد لكل عبارة منه أن تكون جميلة في موقعها ·

وشيء آخر ، فليس كل فكرة وكل احساس وكل صورة تصلح موضوعا للقصيدة ، وتستطيع أن تجعل صاحبها شاعرا عظيما ، فكلما كانت المعاني أعمق ، والافاق النفسية أرحب ، كانت الشاعرية أصدق وأعظم · لذلك لا بد للشاعر أن يترفع عن سقط المتاع من المواضيع المنحطة التي يتهافت عليها ذباب الشعر وبعوضه ، ولا يتناول بقلمه الا كل ما يعلم قوة الروح ، يرشد الى سبيل السعادة ، أو كل ما يمكن أن يؤدي رسالة صحيحة الى الناس لتسمو بانسانيتهم · وشوقي الشاعر كان هذا شأنه ـ الى حد ما ـ حين كان مدفوعا بطبيعته الشعرية، لا مقودا بمقاود الوظيفة والمناسبة ·

وأقول ـ الى حد ما ـ لانني لا أريد أن أعطي الرجل ما ليس له • ولذلك أنظر الآن في شعره الى الناحيتين اللتين قلت أن الشعر يتألف منهما •

أما الاسلوب الادائي ، فالواقع أن شوقي لم يلبس فيه ثوبا خاصا به ، مستقلا بطابعه ـ ولا كان يملك الحرية في لبس مثل هذا الثوب الخاص ـ وانما لبس ثياب بعض شعراء العربية المتفوقين في العصور السابقة : فأنت تجده في ثياب البحتري حينا ، وحينا آخر في ثياب ابن زيدون ، وطورا في ثياب المتنبي ، وقد زاد عليهم جميعا طول النفس الشعري الى حد ممل أحيانا • وطبعا لم تكن شخصية الادب العربي الحديث قد برزت بعد ، يوم كان شوقي في أوج مجده الشعري ، ولم يكن من السهل على شاعر مثل شوقي ، يعتمد في نجاحه الادبي ، ومجده الدنيوي على اعجاب الجماهير ، وعلى رضا أولياء الامر في مصر ، أن يستقل بطابع شعري جديد ، لان فكرة « القديم » والايمان بعظمته ، والتنكر لكل ما هو جديد ، كانت هي السائدة آنذاك • ولو حاول شوقي أن يجيء بأسلوب شعري جديد ، كما فعل جبران مثلا ، لكان من المؤكد أن لا يصل الى بعض المجد الذي وصل اليه • فالبيئة الجامدة المحافظة هي التي كانت تفرض على شوقي أن يختار أسلوبه من الماضي ليرضي أذواق أهلها ، وكان يكفي أن يقال أن شوقي ـ خليفة المتنبي ـ لكي ينتزع الاعجاب المطلق من الجماهير ، سواء فيها المثقف وشبه المثقف والامي • ولهذا قلنا انه لم يكن يملك الحرية في ابتداع أسلوب عصري جديد •

وفي بيئة مثل هذه لا يمكننا أن نأمل في الوقوع عند شوقي على أسلوب عصري ، من تلك الاساليب البيانية التي تعتمد على السهولة والبساطة والوضوح في التعبير وتلك هي الضريبة الادبية الباهظة التي دفعها شوقي لجيله مكرها•

ومع ذلك لا يسعنا الا أن نعجب بهذا الاسلوب الشوقي الجامع بين أساليب جماعة من أكبر شعراء العربية السابقين• وقد اختارهم شوقي ـ وقد كان مكرها على التأثر بالقدماء ـ لانه شاء أن يكون تأثره بالمتفوقين منهم ، فكان في اختياره بارعا جدا وموفقا : فالمتنبي والبحتري ، وابن زيدون ، من أعظم شعراء العربية السابقين من حيث الشاعرية وقوة تدفقها ، وتماسك الشعر وقوة أسره ، وفيض الاحساس ورقته ، وخصب الفكرة ، وجمال الحكمة • غير أن شوقي في الواقع كان أعظم منهم جميعا في هذه النواحي ، فقد جمع في شعره أقوى ما تفرد به كل من أولئك الشعراء الثلاثة من مزايا وخصائص •

فاذا كان ابن زيدون قد تميز برقة العاطفة ، والبحتري بجودة الوصف ، والمتنبي بالحكمة ، ففي شعر شوقي تجتمع هذه المزايا بأسرها ، وعلى مدى واسع •

ومن ناحية ثانية كانت تند عن شوقي أحيانا فلتات روائع ، كأنما كان ينظمها لا واعيا ، فكان أسلوبه يسلس فيها كل السلاسة ، وألفاظه تعذب وتترقرق كما تترقرق مياه الجداول الصافية على الحصباء اللامعة • ولعلنا نستطيع أن نعد هذه ميزة لشوقي على سائر شعراء جيله الادبي •

هذا من ناحية الاسلوب الادائي في شعر شوقي ، أما من الناحية الموضوعية فالامر لا بد له من تحديد وتفصيل ، لنعطي ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله •

لقد كان شوقي شاعرا عظيما في قصائده التي كان يستجيب فيها الى طبيعته الشعرية الموهوبة • ولكن عظمته هذه تبقى محدودة لا تصل به الى مرتبة من ندعوهم بالشعراء ـ العالميين ـ ، أمثال شكسبير ، ودانتي ، وجوته ، لان للشعر العالمي الخالد صفات ومزايا عالمية خالدة ، فهو تعبير عن خلجات الانسانية الشاملة ، وأشواقها وآمالها وآلامها ، بعيدا عن حدود الزمان والمكان ، والدين والجنس ، والوطن والقومية •

واذا وجد لدى شوقي شيء من مثل هذا ، فهو من قبيل الكلام العابر الذي كانت تجيء به المناسبات ، ولم يكن يقصد لذاته ، ولا كان فكرة أو مبدأ آمن بهما شوقي ، فجعلهما رسالة خاصة يحملها الى الناس ويبشر بها ٠

ولكن شوقي كان عظيما في أمته العربية وحدها ، لان كان يحمل اليها رسالة قومية سامية ، هي رسالة الوعي والتحرير والنهوض التي سبق أن حمل مشعلها الاول جمال الدين ومحمد عبده في العصر الحديث ٠

لقد كان شوقي هو اللسان القوي الطليق في التعبير عن نزعة التحرر التي تجيش في صدور المصريين خاصة ، والمسلمين بوجه عام ، فهو لسانهم المعبر ، وترجمانهم الصريح ٠ ولعل هذه الناحية التي أحس شوقي القيام بأعبائها ، وساعده عليها المركز الذي كان يتمتع به في قصور ملوك مصر ، كانت أقوى الحوافز على تعلق الجماهير بشعره وترقبهم لقصائده ، وبالتالي على مبايعته بامارة الشعر ،لما كانت قصائده الوطنية والقومية تتركه في النفوس من اللهيب والفوران ٠ ٠

ونحن اذن لن نبالغ اذا قلنا أن شوقي كان ــ من هذه الناحية ــ يمتاز على سائر الشعراء العرب الذين عاصروه ، والذين سبقوا زمانه،ويحتل بينهم المرتبة الاولى في العظمة٠

ومن هنا نبدأ بدراسة شوقي الشاعر ٠

على أننا مع ذلك لن نطيل كثيرا في الحديث بعد أن رأينا الخطوط الرئيسية في شاعرية شوقي، بل سنكتفي على الاغلب بالتلميح دون التصريح ، ما دامت مؤلفات شوقي بين أيدي الناس ، وفي وسعهم الرجوع اليها للاستزادة اذا شاؤوا

ان لشوقي ديوانا ضخما هو ــ الشوقيات ــ ، يقع في أربعة أجزاء ضخام،وفي هذه المجلدات قصائد من كل فن وباب، حتى أن جزءا كاملا ــ هو الثالث ــ قد خصص للمراثي وحدها ٠ وهذا الجزء بأكمله نحن في غنى عنه وعن النظر فيه ، لانه من شعر شوقي ــ الموظف الرسمي ــ وشوقي ــ المقلد المرغم ــ كلاهما يجتمع فيه في وقت واحد ٠

وهناك قصائد عديدة في الاجزاء الاخرى كتبها شوقي في المدح والتهاني : مدح الكبراء والعظماء ، وفي مقدمتهم ملوك مصر ، الذين يقول فيهم في احدى قصائده :

أأخون اسماعيل في أبنائه
ولقد ولدت بباب اسماعيلا ؟

ولبست نعمته ونعمة بيته
فلبست جزلا وارتديت جميلا

مما يدلنا على أن شوقي في شعر المدح هذا انما يؤدي وظيفة رسمية ، هي التي يتقاضى عليها معاشه ٠٠

غير أن قوة شوقي الشعرية وشهرته ، تعتمد على أنه كان اللسان البليغ المعبر :

١ ــ عن النزعة الوطنية المصرية ٠

٢ ــ عن الروح والعقيدة الدينية الاسلامية ٠

٣ ــ عن النزعة القومية العربية ٠

وهنا يتسع المجال لمن يشاء أن يمضي في دراسة شوقي ٠ ففي كل ناحية من هذه النواحي الثلاث مجال لدراسة طويلة خاصة ، لو أردنا التوسع ، ونحن واجدون من القصائد التي تصور هذه النواحي شيئا كثيرا ٠

فمصر بتاريخها القديم ، وآثارها الفرعونية الخالدة، وحضارة فراعنتها العظيمة ، وكذلك مصر الحديثة ، ونزعة شعبها التحررية ، وأحداثها المهمة،وأعمال ملوكها وزعمائها ونهضتها الحديثة ، كل هذا مصور في شعر شوقي أوفى تصوير وأبرعه ، مما يجعل شوقي لسان مصر الناطق ٠

والخلافة الاسلامية وما أصاب الاسلام في تركيا والشرق من فجائع ، والعصبية الاسلامية ، وآمال المسلمين في نهضة الدين والدنيا وموئل الخلافة ــ تركيا ــ ورجالها الكبار ، وحروبها وانتصاراتها أو انكساراتها ، جميعها يصورها شوقي بعقيدة قوية وعبارة حارة ، مما يجعله أقوى لسان للاسلام والمسلمين ٠

أما النزعة القومية العربية فهي أقل نواحي شاعرية شوقي حظا في قصائده ، ومع ذلك فان له شعرا قوميا عربيا يفيض بالعاطفة والصدق والغيرة . وحسبنا من هذا كتابه الشعري ـ ممالك العرب والاسلام ـ وقصيدتا ـ دمشق ـ و ـ نكبة دمشق ـ، وهاتان الاخيرتان خير ما نظمه في الشعر القومي ، ومن أجمل الشعر العربي القومي الحديث . ويكفي أن نقرأ قوله ي احدهما :

وللاوطان في دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق

ومن يسقي ويشرب بالمنايا
اذا الاحرار لم يسقوا ويسقوا ؟

ولا يبني الممالك كالضحايا
ولا يعلي الحقوق ولا يحق

ففي القتلى لاجيال حياة
وفي الاسرى فدى لهمو وعتق

وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

أقول تكفي هذه الابيات لتدلنا على مبلغ الحرارة وتدفق العاطفة العربية عند شوقي ، اذا هاجته العزة القومية .

أما لتصوير شدة شعوره الوطني ، فيكفي أن نذكر قوله :

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني اليه في الخلد نفسي

أما عاطفته الاسلامية القوية فيكفي للدلالة عليها أن نذكر قوله في قصيدته « الاندلس الجديدة » :

مهلا أدرنة كل ملك زائل
يوما ويبقى المالك العلام
خفت الاذان فما عليك موحد ،
يسعى ، ولا الجمع الحسان تقام
وخبت مساجد كن نورا جامعا
تمشي اليه الاسد والارام

يدرجن في حرم الصلاة قوانتا
بيض الازار ، كأنهن حمام

هذا من حيث تصوير شعور شوقي الخاص في هذه النواحي الثلاث . أما تسجيله بالشعر للحوادث المتعلقة بهذه النواحي ، وتعبيره عن اعتزازه وتعلقه بها ، وتزويقه لها بألوان من عاطفته الحارة ، فهذا ما لا تتسع هذه الدراسة القصيرة العابرة للاستدلال عليه بما فيه الكفاية ، ولكننا نتركه للقارىء ليجده وافرا في مؤلفات شوقي الشعرية الكثيرة ، وعلى الاخص في ـ الشوقيات ـ و ـ ممالك العرب والاسلام ـ ، ولهذا نكتفي بالاشارة اليه ، ونتجاوزه للنظر في نواح أخرى من شاعرية شوقي .

عدا الروح الدينية والوطنية والقومية عند شوقي ، نجد أيضا قوة شاعريته المتفوقة على شعراء زمانه ، في مقدرته على اخضاع الالفاظ لمعانيه ، وعلى جمال الوصف الشعري .

والذي ينظر في شعر شوقي يجد أنه تكثر فيه القصائد الطوال ، المفرطة في الطول ، ويجد أنكل واحدة من هذه القصائد ، مهما بلغ من طولها ، تجري على قافية واحدة . وفي هذا ما فيه من كد للذهن ، ونصب في البحث عن التركيب المناسب ، اذا لم يكن النظم متمكنا من لغته كل التمكن ، ومطلعا على دخائلها وكثير من مترادفاتها وأساليبها .

أما شوقي فقد كان يمضي فيقصائده غالبا كما يمضي الماء المنساب في جداوله . فلا تكاد تجد عبارة مجهدة ، أو بيتا يظهر عليه التعب. ولعلالتعابير الضعيفة ـ أو ما كانوا يدعونه قديما بالشعر الرديء ـ عند شوقي أقل منها بكثير عند أي شاعر آخر من شعراء زمانه . وتلك مزية أخرى لشوقي ، لم ينافسه فيها أحد من جيله الادبي .

أما الاوصاف الشعرية فقد جاء منها في شعر شوقي الشيء الكثير الرائع ، كقوله في قصيدة ـ دمشق ـ :

آمنت بالله واستثنيت جنته
دمشق روح وجنات وريحان

جرى وصفق يلقانا بها بردى
كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيها زمردة
والشمس فوق لجين الماء عقيان

والحور في دمر أو حول هامتها
حور كواشف عن ساق وولدان

والطير تصدح من خلف الغصون
بها وللعيون كما للطير ألحان

أو نجواه لابي الهول في قوله :

أبا الهول طال عليك العصر
وبلغت في الارض أقصى العمر

فيا لدة الدهر ، لا الدهر شب
ولا أنت جاوزت حد الصغر

الام ركوبك متن الرمال
لطي الاصيل وجوب السحر

تسافر منتقلا في القرون
فايان تلقى غبار السفر ؟

أبينك عهد وبين الجبال
تزولان في الموعد المنتظر

أو قوله في « الاندلس الجديدة » :

السيف عار والوباء مسلط
والسيل خوف ، والثلوج ركام

والجوع فتاك وفيه صحابه
لو لم يجوعوا في الجهاد لصاموا

ضنوا بعرضك أن يباع ويشترى
عرض الحرائر ليس فيه سوام

ضاق الحصار كأنما حلقاته
فلك ، ومقذوفاتها اجرام

ورمى العدا ورميتهم بجهنم
مما يصب الله لا الاقوام

ما زال بينك في الحصار وبينه
شم الحصون ومثلهن عظام

حتى احتواك مقابرا وحويته
جثثا ، فلا غبن ولا استذمام

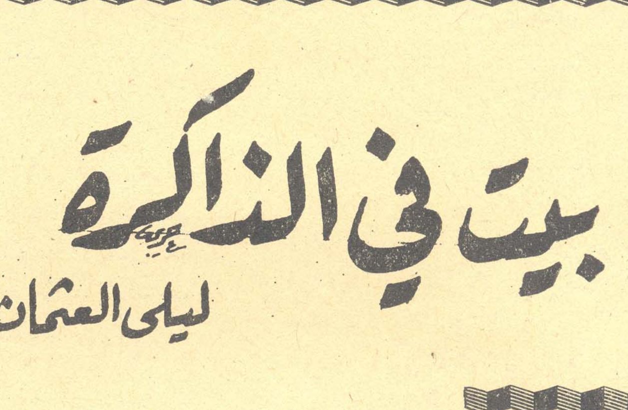
هذه النواحي في قصائد شوقي هي التي نراها جديرة بالدراسة ، لانها هي التي تدلنا على شوقي الشاعر أكثر من سواها • ويمكننا أن نضيف اليها مما في الشوقيات عددا من القصائد التي تدور على ألسنة الحيوانات والاشياء ، وهذه يهمنا منها أولا : المعاني التي ترمي اليها ، وهي معان تهذيبية جميلة ، وثانيا : جمال الصياغة الشعرية ، مما يجعلها قريبة الى النفوس •

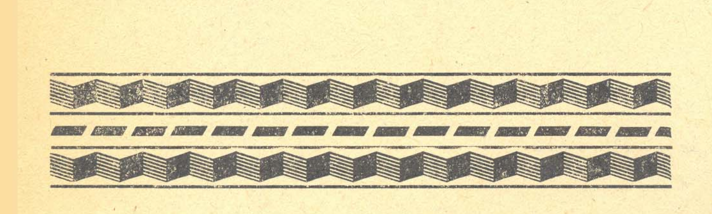
فاذا خرجنا بعد هذا عن مجال ـ الشوقيات ـ رأينا شوقي الشاعر في مجموعة مسرحياته الشعرية ، وهو هناك شاعر قوي الشاعرية ، ومتفوق على شعراء جيله في فنه ، فقد كانت المسرحية الشعرية ، الى الزمن الذي نظم فيه شوقي مسرحياته ، محاولات أولية ، وأغلبها ترجمات عن اللغات الغربية ، ضعيفة الحظ من الفن والحيوية والنضج•

ولكن شوقي استطاع أن يبتدع من عنده ، وأن يقدم شيئا فنيا له قيمة كبيرة • واذا لم يكن قد وفق من الناحية الفنية في جميع مسرحياته ، فان حظه من التوفيق في ـ كليوباترا ـ و ـ مجنون ليلى ـ كبير مرموق ، مما يسمح لنا بأن نقول ان شوقي أول شاعر عصري عربي قدم للمسرح نتاجا شعريا فنيا قيما •

والواقع أن مجال الدراسة في هذه المسرحيات الشوقية واسع جدا ، ولكننا نرىأن نكبح جماح القلم عند هذا الحد، لان هدفنا الاساسي في هذه الدراسة أن نبحث عن ـ شوقي الشاعر ـ بين الاكداس الكبيرة ـ من القصائد التي نظمها في شوقياته ومسرحياته ومؤلفاته الشعرية الاخرى •

ولقد وجدناه ،فرأيناه مثقلا بالصيد السمين ،والغلال الخصبة ، مما يستحق معه تلك الشهرة العريضة التي نالها ، والتفوق الكبير على سائر شعراء جيله ، مقيدا بحدود الزمان والبيئة اللذين عاش فيهما •





الى بيت أولادي الذي ينتظرهم في صفد

ألقى برأسه الصغير المتعب على وسادته ٠٠ حاول أن يمد ساقيه لكنهما اصطدمتا بجسد أخيه الذي ينام معترضا ٠٠

ـ الغرفة ضيقة وستبقى كذلك ، واليد أيضا ضيقة فمتى تتسع لاشتري دراجة ؟

صوته يخرج :

ـ أمي ٠٠

وتشهق :

ـ هس لا توقظ اخوتك ٠

ـ ولكن يا أمي ٠٠ الدراجة !!

تترك قطعة القماش التي تطرز بها وتقترب منه :

ـ الدراجة لن تحصل عليها ٠ هل ترانا قادرين على شراء دراجة ؟

نهض جالسا ٠

ـ ولكني أتعب يا أمي ألا يكفيني الركض بين السيارات كل يوم ؟؟

يدها تربت على خده الخشن ٠

ـ اصبر ٠٠ غدا حين تكبر وتعمل ستشتري لنفسك سيارة ٠

وتبتسم مشجعة :

ـ هيه ٠٠ سيارة ٠٠ وليس دراجة ٠

ويرفع صوته محتجا :

ـ ولكنني أعمل الان ٠ فلماذا لا أشتري الدراجة ؟ لماذا أنام كل ليلة على أمنيتي و ٠٠

وزجرته مقاطعة :

ـ وستظل نائما الى أن يشاء الله ٠ ويتوفر لوالدك ثمنها ٠

حاول أن يفتح فمه ولكنها سبقته :

ـ هس ٠٠ نم الان لتصحو باكرا ، في الصباح ينتظرك عمل شاق ٠

استلقى ، ووضع رأسه ثانية على وسادته ولم يجرؤ على مقاومة دموعه :

ـ « أمي على حق ٠٠ ما الذي يسد بطني ٠٠ وبطن اخوتي ؟ ما الذي يسد بطن صاحب البيت ؟ » ٠

حملق في السقف ٠ قشوره من الرطوبة تكاد تتساقط ٠ أخذ يرقبها بحزن :

— لو تتحول هذه القشور الى أوراق نقدية وتتساقط

يزفـــر ٠٠

— « الله كم سأكون سـعيدا ٠٠ وسأشتري الدراجة ! » ٠

ويصحو من خيالاته الطفولية ويتذكر الواقع ٠ ان السقف لا يكرمه الا بقشور تتساقط كلما تساقط المطر ٠ وتجف كلما غرست الشمس أنياب أشعتها الحارقة في الصيف في أرض السطح ٠

تحرك متحسرا :

« آه ٠٠ متى نجد بيتا أوسع من هذا وأقرب الى الارض من هذا الملحق في سطح العمارة ٠٠ ما أكره السطوح » ٠

وتدغدغ مسامعه حكايات أمه :

« في صفد كان سطح بيتنا واسعا ٠ وجداره قليل الارتفاع ٠ كانت جدتك توزع على جداره قوارير الفل ٠ وفي كل مساء تصف كراسي الخيزران وتجلس قرب جدك ٠ هي تخيط ثيابنا ، وجدك يسرح مع صوت — أرجيلته — » ٠

« كان سطحنا رائعا ، وكان يحلـو للجيران أن يسهروا معنا فيه يتحـول السطح الى أغنيات وأهازيج ، جدتـك تجيد القرع على — الدربكة — والاخريات يصفقن ويغنين بابتهاج ٠ ونحن الصغار كنـا نرقص ونفرح ، لو تستطيع يـا ولدي أن تتصور كم كانت رائعة ليالينا وسهراتنا ورائحة الفل تدخل الى أنوفنا مع كل نسمة من نسمات هواء صـفد العليل » ٠

يقلب الصبي نفسه الى الجانب الايمن فيلطم وجهه منظر الباب الخشبي ٠

— «ما أبعد المسافة بين سطحنا وسطح بيت جدي في صفد ٠

هل سأراه يا ترى ؟ ٠٠ هل لا تزال قوارير الفل على سوره ؟؟

يتنهد ٠٠ وينزع نفسه من أحلامه ويفكر بالغد ٠

« حتى تعطيني السيدة الجميلـة ربع دينار كعادتها ٠ لن أعطيه لامـي سأجمع النقود وسأشتري بها الدراجة » ٠

أبواق السيارات تشق طبلة أذنيه ، كل واحد يستعجل دوره ويشق طريقه بين الزحام يعطي ٠٠ ويأخذ ويصـرخ جريدة ٠٠ جريدة ٠٠

عيناه تبحثان عن سيارتها :

— أف ٠٠ لقد تأخرت ٠ الاشـارة الخضراء تنقله الى الرصيف ويبدأ سيل السيارات يخترق الشارع ٠٠ عينـاه تبحثان ٠٠

— يا ربي ٠٠ هل ستجيء ؟؟

وتحسس جيبه ٠

— ستمتلىء يا جيبي الان ٠٠ ربـع دينار وقطعة شوكولاته ٠

ويلمحهـا ٠

يدير عنقه بسرعة مذهلة ناحيـة الاشارة الضوئية ليتأكد أنها حمراء ٠

— « اذا كانت خضراء فان السيدة لن تقف » ٠

اطمأن الى لون الاشارة ، بعـد أن كادت عنقه تودع جسده وارتسـمت ضحكة الفرح على شفتيه المبتلتين بلعابه وجهها يحييه ،ويد طفلها تمتد بقطعة الشوكولاته وربع الدينار ٠

— جريدة

تبتسم

— لا

— « لماذا أثقل دمي وأسألها كل يوم نفس السؤال ٠ هي لا تريد جريدة ٠ انها فقط تريد أن تفرحني » ٠

يستيقظ من سرحاته على أصـوات أبواق السيارات ٠ يدس ربع الدينـار والشوكولاته في جيبه وينطلق ٠

جريدة ٠٠ جريدة ٠٠ جريدة ٠٠

في كل ليلة كان ينتظر أن تهـدأ أنفاس والديه واخوته فيخرج النقـود ويعدها : ربع ٠٠ نصف ٠٠ سبعمائة وخمسون ٠٠ دينار ٠٠ دينار وربع ٠٠ دينار ونصف ٠٠ »

يزفـر ٠٠٠

— أف ٠٠ متى تصبح عشـرة ٠٠ عشرين ثلاثين ٠٠ ؟؟ في ستة أيام جمعت دينارا ونصف الدينار ٠ في ستة أيـام أخرى سأجمع ثلاثة دنانير ٠ وفي ستة أيام ثالثة ستكون الحصيلة أربعة دنانـير ونصفا ٠٠ و ٠٠ حك أذنيه :

— « الوقت طويل وستصبح الايـام أثقل بكثير من قدرتي على الاستمرار في الكذب ! ٠٠ مسكينة أمي ٠ لقد كانت تنتظر ربع الدينار كل يوم بلهفة لا تقل عن لهفتي وأنا أنتظره على الرصيف حاملا جرائد أثقل من وزن ذراعي » ٠

— ألم تمر السيدة اليوم ؟

لا يا أمـي ٠

وتتنهـد :

مسكينة ٠٠ لعلها مريضة ٠

— ربما يا أمـي ٠

وتشك أمي

— أو ٠٠ أو ٠٠ يا ساتر !! ربمـا ماتت ٠٠

وانتفض الصبي :

« يا الهي أمي تظنها ماتت ٠

انها لا تعلم شيئا ٠٠ وحدي أنا الذي أعلم ٠ ابتسامة المرأة تصافحني كل يوم ، ويد طفلها تمتد بربع دينار وقطعـة الشوكولاته ويدي ٠٠

ينظر الى النقود في يديه ٠

— ويدي تسرق النقود كل يـوم ٠

ويصمم :

— غدا سأعترف لامي ولن أخفـي النقود كما فعلت في الايام الماضية ٠

ودس النقود المصفوفة تحت وسادته ، لم يفكر أن يخفيها في مكانها كل ليلة ٠ خشخشة الاوراق تصل الى أذنيـه حاملة صوت أمه :

حين خرجنا من بيتنا في صفد كان حزام القماش الذي يحيط خصر جدك مليئـا بالمـال ٠

جدتك يا ولد حريصة ٠ وكانت دائما تذكر جدك بألا ينسى الحزام » ٠

رموشه تداعب وجنتيه ٠٠

— « ولن يكون عندي مال بقدر مـا كان عند جدتي ٠ ولن أحتاج لحزام » ٠

انه لا يحلم بشيء بقدر ما يحلـم بدراجة صغيرة يعود بها الى البيت بعد أن يبيع كل يوم الجرائد التي معه ويركبها

ثانية ليذهب الى مدرسة المنظمة بعد الظهر ·

ـ لماذا أذهب الى المدرسة ؟ لماذا لا أعمل بعد الظهر أيضا وأجمع مالا أستطيع أن أشتري به الدراجة ؟ غدا سأفصح لامي عن رغبتي ·

وتذكر وصاياها :

« انتبه ·· احرص على دراستك ونجاحك · أريد أن أراك تحمل الشهادة » ·

وأغمض جفنيه وصوتها لا يزال يرن في أعماقه :

« حين أمرونا أن نخلي بيوتنا حمل جدك حزامه النقدي ولم ينس أن ينزع شهادته المعلقة على الحائط · حملها قبل أن يحمل أي شيء ! حتى ألبوم الصور الذي يضم صور جدتك الغالية عليه » ·

تنهد الصبي :

ـ « لن أحاول اقناع أمي · سأذهب كل يوم الى مدرسة المنظمة ، وفي الصباح سأبيع الجرائد وأحصل على المقابل وعلى ربع الدينار » ·

● ● ●

كان يرتدي بنطلونه على عجل حين شقت أذنيه شهقة حارة صادرة من حلق أمه :

ـ ما هذا ؟

والتفت ··

نقوده في يد أمه · والدهشة في عينيها أسئلة كثيرة متراكمة تطالبه أن يتكلم· يرتجف ·

ـ السيدة الجميلة لم تمت يا أمي · ينتظر أن يسمع اجابة لكن المفاجأة ابتلعت صوتها ·

يكمل :

ـ أردت أن أجمع النقود ·· لا ·· ويجيء صوتها مقاطعا ·· حزينا ·· فاترا :

ـ لتفاجئني بها أليس كذلك ؟؟

كانت أمه تقترب منه بحنان كأنها ترجوه أن يومىء بالايجاب ·

ينظر الى النقود القليلة في كفها :

(لن أكذب يا أمي هذه المرة) ·

ـ لا يا أمي ·· بل لاشتري بها الدراجة !

وسقطت على ركبتيها وحضنت كتفيه الصغيرتين ، صوتها يرتجف :

ـ تخفي النقود من أجل أن تشتري دراجة ؟؟

بخجل دامع يجيب :

ـ نعم من أجل الدراجة !

ـ وبتساؤل غريب تكمل :

ـ أنت كذبت ؟؟ لا أصدق · لا أصدق !

وشدت الصغير اليها وخاصرته بذراعيها خائفة عليه وأجهشت من بين نشيجها كان صوتها يأتي متقطعا ·

ـ تكذب ·· وأنا التي عودتك ألا تكذب ·· أنا أيضا تعودت ألا أكذب ، هل نسيت يا ولدي ما الذي فعلته الاكاذيب بنا ؟؟ هل؟ ؟

ولم يعد صوتها يدخل مسامعه · كان رأسه ملقى على كتفها وكانت أنهار دموعه تتدحرج من مقلتيه بخط منتظم حتى تصل الى صدر أمه المفتوح ·

انه لا ينسى ولن ينسى ·

كان لنا في صفد بيت جميل ، حائطه مغطى بالياسمين وكانت جدتك مغرمة بالزهور ·· قوارير الفل والنرجس وكف مريم تملأ مدخل الشرفات ، لم نكن نجرؤ على قطف زهرة ·· أو فلة ·· جدتك يا ولد ترفض قطف الزهور وقد علمتنا الشم فقط ··

وحرك الصغير رأسه ، ودفن أنفه بين خصلات شعر أمه علّه يستنشق رائحة فل حملتها معها من صفد ، وهي في مثل سنه وهاجرت بها · لكنه لا يشم ·· وصوتها فقط يذكره ·

« حين هاجموا بيتنا كانوا يركلون قوارير الزهور بأقدامهم ، وجدتك تصرخ : اقتلوني ·· قطعوني ·· واتركوا الزهور تعيش ·· اتركوا الزهور لعل شذاها يخفي رائحة أنفاسكم الكريهة ·· ويزرع في قلوبكم شذى الرحمة !

واحد منهم ضرب جدتك على قمة رأسها بكعب بندقيته ··

جدتك ارتمت على الارض ··

جدتك ماتت ··

وظلت عيونها مفتوحة تعانق شجرة الفل وتودعها ·

صوت الام بين الشهقات ما زال يعاتب الصغير :

ـ تكذب يا حبيبي ·· تكذب من أجل دراجة ! أنسيت ما فعل الكذب بنا ·

يرتجف ··

انه لا ينسى ·

حكاياتها الواقعية ترن في أذنه وقلبه:

كذبوا علينا ·· أمرونا أن نخلي مناطقنا فقط لمدة أربع وعشرين ساعة ، لكنهم كذبوا··الساعات أصبحت سنوات وها أنت ترى ·

دموعه لا تزال تتدحرج كدولابي الدراجة تعرف طريقها الى صدر أمه ·· سنواته العشر تذكره بصوتها الحزين ·

حملت سنواتي العشر وخرجنا مع جدك ومع أخوتي · كان جدك يبكي جثة جدتك الراقدة على أرض الشرفة وكان يبكي شيئا مجهولا لم نكن نعلمه !

تركنا بيتنا في صفد مكللا بزهور الياسمين تغطي حوائطه · وتركنا عيون جدتك تحرس الفل ! والبيت ! وقادتنا كذبتهم من مكان لاخر محرومين من الوطن لقد كذبوا فهل نكذب يا ولدي ؟

ذراعا أمه تحرارنه ··وتصافح عيناه الدامعتان عينيها الجميلتين ·

ـ تريد دراجة يا ولدي ؟

يبكي ·

ـ نعم يا أمي ·

صوتها أكثر خنانا ·

سأشتريها لك ·

كفها على رأسه تداعبه ·

ـ وحياة رأسك هذا ·· وحياة بيتنا في صفد ·· سأشتري لك الدراجة ·

الكويت ـ ليلى العثمان

كان انطفاء السراب

طاهر رياض

وعدت ... فأين اشتعال الصبابات مني .. وأين جوى الارتقاب ؟
تفتش عيناك عني في وتفتح بابا .... وتغلق باب
ترودان كل الدروب الرحاب بوجهي .. وأين الدروب الرحاب؟
«تغيرت» قلت «نسيت .. انطفأت» أتدرين ... كان انطفاء السراب !؟

★ ★

وعدت .. تأخرت يا صبوة خريفية ... يشتهيها الضباب
فلم يستطع زورق الانتظار انتظارا .. وأبحر فيه العباب !!

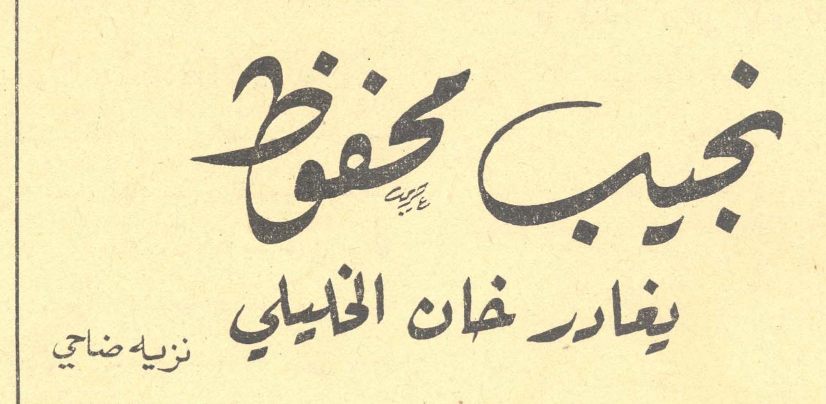
★ ★

وتسألني عن مصير الرغاب شفاه مخضبة بالرغاب
تراتيل للاشتهاء المرير يبسن ظمـاء .. وكان احتطاب !
وهل تترك الخمر يا فتنتي لشاربها صحوة للاياب ؟!

★ ★

صبية .. ردي ربيعك عني يباب أنا .. فاتركيني يباب ..
غرامك سوسنة غضة رميت بها في طوايا كتاب
وصورتك الحلوة المشتهاة رقعت بها صورة للغياب ..
وها أنا .. بعد احتراقي الطويل قنعت من الحب بالاغتراب !

طاهر رياض ـ عمان



لا بد لكل تجربة رمزية ناجحة من أن تعـزز بعض الومضات الواقعية ، لان الاشعاع الرمزي ، يستمد بؤرتـه ومركز ثقله من الواقع ، والرحلة من الواقعية الى الرمزية تطول وتقصر بقدر النجاح الذي يحققه توظيف الرمـز ، فاذا فشل الرمز في فتح الطريق للعودة الى منابعه الاولى في أرض الواقع ، فهو لا بد أن يضيع في سماء الثرثرة والتسيب والاسفاف ، والقدرة الزئبقية الرجراجة التي يمثلها أمامنا الرمز المستغلق ، تجعل الذهن يلهث وراءه كرقاص الساعة الذي لا يستقر في مكان معين لان الرمز دفقة اشراق ، يجب أن يكون لها رصيد على أرض الواقع حتى تستمر في التالق والايحاء ، لان التشيؤ والتلاشي يرتبطان بمادة الواقع .

هذه الملاحظات الاولية ، أردت ايرادهـا كمنطلق أساسي سنحاول في بحثنا هذا استشفاف جذور تولدت وتشعبت منها وامتدت لتطوق مرحلة ذهبية ناضجة مر بها أديبنـا الانساني الكبير نجيب محفوظ الذي يعتبر بحق الاب الشرعي للمدرسة الواقعية التي تبلورت نظرياتها ضمن أطر ومفاهيم معينة كان لـ ـ محفوظ ـ الدور الخـلاق في التخطيط

والتنظير لها ، ولا نقول جديدا البتة ، اذا قلنا ان قصص ـ محفوظ ـ تمتح ماءها من آبار حفرت في كل حي من أحياء مصر الشعبية ، واذا ذكر ـ محفوظ ـ ذكر معه ـ زقاق المدق و ـ خان الخليلي ـ وقصر الشوق ـ وبين القصرين ... الخ .

هذه الاحياء المطبوعة بشعبية المواطنين المصريين ، قام ـ محفوظ ـ بنقلها نقلا مباشرا وبارعا الى طيات قصصه التي اتسعت لكل هذه الاحياء بما فيها من شوارع وأزقة ودور وعائلات ، وما يعتمل في بنيتها الروحية من علاقات اجتماعية وعاطفية وسياسية ، وما يرتسم في خلاياها من علاقات انتاجية وطبقية ، حتى ليشعر القاريء وكأن المؤلف انما عاش وترعرع في هذه الاحياء جميعها ، لانه على معرفة دقيقة بخفايا وأسرار لن يماط اللثام عنها الا للذين خاضوا تجربتها فعلا وقولا .

ومحفوظ دائم التنقل والترحال من حي الى آخر ، تراه مثلا يستأجر منزلا بسيطا في ـ خان الخليلي ـ ويعيش فيه فترة مناسبة تكفي لرصد الحي وتحليله ومسحه اجتماعيا وعاطفيا وسياسيا ببراعة فائقة ، فهو يكتشف وبسهولة عجيبة كافة أسرار القاطنين في هذا الحي من علاقات غرامية أو خيانات زوجية ، ثم يذيع هذه الاسرار على الملأ ، كل الجدران التي تشكل بنيان الحي ، تتهاوى أمام شعاع عينيه الذي يمتلك قوة سحرية على الاختراق والاكتشاف ، فيرى بوضوح ماذا يجري وراءها من حوادث غريبة ، لا يلعب الخيال فيها أي دور ولكن فيها من الاثارة والتشويق ما يجعلها تبتعد عن الاستاتيكية الجامدة ، وتأخذ أبعادا ديناميكية تجعلها تتفوق على الخيال أحيانا .

وطريقة ـ محفوظ ـ في التصوير طريفة ، فهو يبدأ باحصاء تحليلي بارع لكل انسان يقطن هذا الحي ، فيتجسم الحي تدريجيا ... بشوارعه الضيقة ودوره المتواضعة ، وأهله الطيبين ، وحوانيته البسيطة ، وأنت كقاريء سينهض أمام عينيك شكل هندسي مجسم لهذا الحي تراه واضحا كل الوضوح ، ولا نبالغ اذا قلنا : انك ستتعرف على هذا الحي لو زرت القاهرة للمرة الاولى دون أن يدلك أحد عليه ، وذلك من خلال الصورة التي انطبعت في ذهنك ، والتي رسمها لك ـ محفوظ ـ في قصته ، واذا كنت على شيء بسيط من الحماس فانك ستنجرف مع أهل الحي ومشاكلهم الكبيرة والصغيرة ، وتصل الى مرحلة حتمية تشعر فيها أن مشاكل هذا القطاع من الناس هي مشاكلك أنت بالذات .

هذه العملية الناجحة في التجسيم الدقيق للافكار ، لا بد أن نعترف عن طيبة خاطر بأنها لن تتكامل وتتسامى بهذا الشكل الرائع ، الا على يد كاتب عبقري يحمل قلما من ذهب هذا الكاتب القصصي ، استطاع بقلمه هذا ، أن يبني مدينة متكاملة من الاحياء الشعبية التي هي بالتالي تمثل بصدق أكثرية الاحياء العربية ، هذه المدينة الورقية التي بناها ـ محفوظ ـ في سلسلة قصصه ، اتسعت وكبرت حتى شملت قطاعا عظيما من شعبنا العربي المنجرف مع كل تيار للعاطفة والتضحية والوطنية ونكران الذات ، وان الاعجاب ليأخذنا كل مأخذ عندما نتجول في هذه المدينة ، ونتقرى جدرانها التي بنيت بأحجار الواقع المتعانق مع الخيال بشكل لا يترك مجالا للانفصام أو التشقق الجمالي واننا لنلمح ـ محفوظ ـ يتجول في مدينته هذه قافزا من شارع الى آخر ، ومن حي الى آخر ، ما ان يمل التجوال في ـ قصر الشوق ـ حتى يعرج على ـ خان الخليلي ـ فيقيم فترة ثم ينتقل الى ـ السكرية ـ وهكذا دواليك .

ان الاحكام النقدية التي أطلقناها على ـ محفوظ ـ في بدء دراستنا هذه تنسحب بشكل منطقي على انتاجه في الاربعينات والخمسينات وحتى منتصف الستينات ، ولكن بعد هذه الفترة كانت هناك عطاءات جديدة ودفقات جديدة أتحفنا بها ـ محفوظ ـ وكان لا بد للاحكام النقدية من أن

تتخذ مسارا جديدا ، وتلتمع وفق منحنى جديد يتفق والمعطيات الجديدة التي دفعها الى السطح انتاج ـ محفوظ ـ الجديد وبالتحديد بعد نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ ٠

لا جدال في أن نكسة حزيران كانت زلزالا رهيبا ، هز مدينة الادب بعنف ، وأحدث فيها الكثير من التصدعات والانهيارات والتشققات ، فتهاوت قيم ومثل ، وتلاشت أفكار وتقاليد أدبية ، ودفن تحت الركام الكثير من الحماقات والبهلوانيات التي كانت تمارس ، وانعكس كل هذا بالتالي على أدبائنا كافة بشكل ايجابي أو سلبي ، فراح ـ نزار قباني ـ مثلا يكتب بالسكين بعد أن كان يكتب بأحمر الشفاه كما يقول ، وتتالت المراثي عند قبر حزيران بشكل هستيري أو هادىء ، وتنطح الجميع لتحليل هذه الظاهرة الغريبة كلا حسب وجهة نظره ووفق الرؤية النقدية التي تعطيه اياها النافذة الطبقية التي يطل منها على ساحة النكسة ٠

ووسط هذا السيل الهادر من المشاعر العارمة الصادقة منها والديماغوجية جاءت قصة ـ محفوظ ـ ـ تحت المظلة ـ لتعطي هذا السيل دفعا عكسيا ان صح التعبير ، لانها خاطبت طبقة معينة من مجتمعنا هي بالتأكيد ليست ذات هوية شعبية بسيطة ، لذلك أعتبرت مولودا لقيطا وغير شرعي ، مع أن النكسة كانت خنجرا لئيما وغادرا انغرز في ظهر الجماهير الفقيرة التي أسلمت قيادها بسذاجة وبساطة الى أناس قادوها الى مسلخ حزيران بخسة وصفاقة لا نظير لهما كما تساق الشاة تماما ٠

وهنا نود طرح هذا السؤال : هل يعني صدور ـ تحت المظلة ـ وهي قصة اعتمدت الرمز والتعمية والغموض وفي هذه الفترة بالذات ـ فترة النكسة ـ هل يعني ذلك بالنسبة ـ لمحفوظ ـ حالة طلاق وانسلاخ واغتراب عن المدرسة الواقعية الشعبية التي كان يوما رائدا من روادها ؟ ٠٠٠ وبتعبير آخر هل هي مغادرة نهائية لخان الخليلي ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال ليست بالامر الهين لسببين رئيسيين أولهما : ان تنكر ـ محفوظ ـ لمدرسته الواقعية الشعبية ، جاء مفاجئا ، وبشكل ومضة مشعة ، أعمت العيون لفترة عن رؤية المسببات والخلفيات لهذه الحالة الطارئة ، وثانيهما : ان هذا المنعطف الحاد في حياة ـ محفوظ ـ القصصية بحاجة الى دراسة منهجية واعية تضع في اعتبارها العوامل التي تضافرت وأدت ـ بمحفوظ ـ الى هذه الطفرات السريالية والاندفاعات الرمزية ٠

لقد كان انتاج ـ محفوظ ـ السابق يكاد يكون وقفا على طبقة معينة من الشعب هي طبقة الكادحين والمحرومين ، وقداستقى من هذا المنهل الثر الكثير من الدلاء المملوءة بالروعة والجمال وقد غاص الى أعماق هذه الطبقة مستكشفا لكل زواياها بدقة تثير الاعجاب ، ونبش بقلمه الفذ كل صغيرة وكبيرة ، وان كنا نأخذ عليه أنه كان في أحيان كثيرة واقعيا انطباعيا فقط لا واقعيا نقديا ، فهو يلوح بالنقد بين السطور ، ولكن من بعيد وبشكل غير صريح أو واضح ٠ أردت من هذه الكلمة أن تكون مدخلا ، سيحاول الوصول بنا الى استقراء الاسباب الكامنة وراء اندفاع ـ محفوظ ـ وارتمائه في أحضان الرمزية والسريالية ٠

ان الموجة الرمزية والسريالية التي غطت المجتمع الغربي بعيد الحربين العالميتين الاولى والثانية ، والتي نجمت كما نعلم عن المآسي والويلات التي سببتها هذه الحروب ، والتي جعلت الادباء يهربون من واقعهم القبيح ، ويقفزون فوق مشكلاته ، هذه الموجة نفسها وبعد تعريب بسيط أعتقد أنها غطت أيضا أدبنا العربي شعره ونثره بعد نكسة حزيران ، وسبب هذه الموجة في رأينا هو محاولة يائسة للانفلات من قيود الواقع الثقيلة ، هذا الواقع السمج.

الذي خيب الآمال ، واغتال كل نبضة للرجاء ، وأطفأ كل شموع الابتسامات على شفاه الاطفال ، والاديب بطبيعته خيالي ، يحب الكمال والمثالية ، ويبني بحروفه عالما جديدا يضفي عليه نفحة من عبقريته وبعد نظره ·

وسنقول هنا بعض الكلام الذي سيبدو غير جديد ، ولكننا مجبرون على قوله لانه يتناسب تماما مع سياق بحثنا ، ان التناقض المفضوح لكل عين بين ما يتمنى الاديب تحقيقه وبين ما تحقق فعلا ، هذا التناقض كان رصاصة الرحمة التي أنهت عمرا طويلا عاشه ـ محفوظ ـ في مدرسته الواقعية ، فقد شعر ـ محفوظ ـ أخيرا بأن ما يكتبه عن هذا الشعب الطيب لم يكن دعوة صريحة الى التغيير والثورة بقدر ما كان ترسيخا للعلاقات الاجتماعية والانتاجية الفاسدة التي تستعبد هذا الشعب ، ومن هنا فقد تسرب الى واقعيته طوفان اليأس فآثر الهروب من الواقع الى ما وراء الواقع ، حيث ارتمى في أحضان الميتافيزيكية والسريالية والرمزية ، ليبدأ مرحلة المخاض والولادة الجديدة ·

ان لعبة الرمزية قد استهوت ـ محفوظ ـ فتتابع انتاجه الرمزي ، كما تابع اقتحامه لهذه الغابة العذراء في قصته الخالدة ـ أولاد حارتنا ـ هذه الملحمة الرائعة التي أعطت الرمزية ـ محفوظ ـ دفعا جديدا ، ولكنه في اندفاعه النوعي نحو الرمز كان لا يعني عن الالتفات الى الواقع مؤكدا بين الفينة والاخرى هويته الواقعية حتى أن قصته ـ أولاد حارتنا ـ ما هي الا صك ادانة يحمل وجهين من التجريم الرمزي والبراءة الواقعية في آن واحد ، فهي قصة تعتمد في بنيانها على أدوات الواقع ومعطياته ، ولكنها في حقيقتها ملحمة خالدة تكاد تقترب كثيرا من الملاحم الاغريقية الخالدة فملامح جوبيتر اله الاولمب وفينوس ربة الجمال وباخوس اله الخمر وغيرهم من خوالد التراث الاغريقي الكلاسيكي تكاد تطل برؤوسها من بين السطور ·

اذن ان المحطة الرمزية التي توقف فيها ـ محفوظ ـ أثناء رحلته القصصية الخالدة لم تكن بأية حال نهاية المطاف وانما كانت قوس قزح سطع بعد مطر شديد ومستمر ولكنه عاد وانقشع ، وانتاجه الاخير حكايات حارتنا ، المرايا ·· الخ يؤكد هذه المقولة ، لقد كانت الرمزية في حياة ـ محفوظ ـ سحابة صيف ، جمعها في سمائه : اليأس والحزن والهروب من الواقع وقد يكون للسلطة وممارستها القمع الفكري دور في هذه الردة الادبية الرمزية في حياة ـ محفوظ ـ ·

وكلمة أخيرة لا بد من قولها : ان ـ نجيب محفوظ ـ كان ملتصقا بالواقعية لمدة طويلة ولكنه بفعل بعض العوامل التي ذكرناها ، راح ينوس بين الواقعية والرمزية ، ورحلته الرومانتيكية هذه الى عالم الرمز كانت مزجا بين الرمز والمدلول بآن واحد ، لان الانتماء الواقعي لـ ـ محفوظ ـ ظل قائما حتى ابان الردة الرمزية التي تركت انطباعا تكتيكيا عابرا في أدبه وما زالت هذه المرحلة الفنية بحاجة الى مزيد من الاستكشاف والرصد والتحليل على أن يتم ذلك من خلال منظور طبقي معين ومن خلال شروط موضوعية محايدة ·

نزيه ضاحي ـ حمص

ياحامل الكأس

شعر الدكتور عبدو مسوح

يا حامل الكأس هذا القلب ما برحا   سكران من خمرة الاهداب مطرحا

عاطيته الراح أشكالا ملونة   وأحسن الخمر ما سوداءنا لفحا

جد لي بسهم من العينين منصلت   لعلني أتداوى بالذي جرحا

قال : اتئد .. ليس يجدي الطب ذا شغف   وما خبرت مثيلا في هواي صحا

فقلت : رفقا فاني مدنف تعب   أمضه الحب حتى مله شبحا

فقال : ما ذنبنا .. والله أسلمنا   روح العباد اذا ما عاشق رزحا ؟

فقلت : هل حلل الرحمن سفك دمي ؟   فقال : ويحك .. في دنيا الهوى سمحا

فقلت : لم أرتكب اثما ومعصية   بحق ظبي بأرض الشام قد سنحا

أحب آرام « حمص » في تأودها   وقد نفت عن فؤادي الهم والترحا

أحبها وليالي الشعر حالكة   وأعبد الصبح من اشراقها وضحا

والثغر .. لولا حديث كنت أسمعه   لم أدر هل برعم المنثور أم فتحا ؟

يا أحور الطرف زدني بالعيون لظى   ما أجمل اللحظ .. ما أخفى وما شرحا

ويا حنينا من الانغام ان نطقت   حسبتها البلبل الغريد قد صدحا

والوجنتان .. وماء الورد ماؤهما   كوبان من خمرة الاشواق قد طفحا

وجيدها يا سمين بت ألثمه   كم من ضريح لها في صدرنا ضرحا

وعقدها سبحات جمعت شغفا ... ما أبدع العنق القديس والسبحا
والناهدان كمصباحين من ألق ... ترى الربيع على الاضواء منسرحا
قالت : لم الآهة الحرى وسورتها ؟ ... صبرا فكم من حبيب قبلكم فضحا
فقلت : ان لم نمجد سحركم أبدا ... ما فاح طيب على الدنيا ولا نفحا
نحن السكارى وذوب الروح خمرتنا ... أكرم بها خمرة ما لامست قدحا

★ ★ ★

يا صاحبيّ ولي حب يعذبني ... وكان قبلا اذا عاتبته صفحا
من ذا يعلمه هجري ليقتلني ... وقد نظمت له الاشعار والمدحا
وكم بعثت مع الانسام أخبره ... عما ألاقي من الاشواق والبرحا
فكان كالظبي يوليني مياسره ... فان سنحت له في غدوه برحا

★ ★ ★

ما أبدع الدهر والايام مشرقة ... وأضيق الكون في الجلى وان فسحا

★ ★ ★

يا باعث الحب في الدنيا ومضرمه ... ومن بيمناه هذا الكون قد مسحا
هب لي غراما كنور الشمس مشرقة ... يشع صبحا ويهدي العالمين ضحى

★ ★ ★

من ليالي العمر :

وليلة من ليالي العمر ماتعة ... ما طال ليل بمغناها ولا دلحا
ورفقتي علماء ليس ينقصهم ... تخصص يترك المعلول منشرحا
صرخت للندل أبغي بعض أشربة ... ما طاب منها وما هز الفتى مرحا
وقلت : هات ولا تمنع مدلهة ... كريمة الاصل منها الطبع قد سمحا
فقال : عندي خمور لست أذكرها ... فأي نوع ترجى ؟ قلت : ما صرحا
فقال صحبي : أغثنا بالتي هتكت ... تصير البكم من سوراتها فصحا
فقال : خذها تعيد الروح ثانية ... وتلأم الجرح اما دهرنا قرحا

فما شربت لعمر الله واحدة ... حتى شعرت بأن الهم قد نزحا
وبينما نحن في سكر وفي هرج ... اذ بالمغني ينادي : الليل قد جلحا
فجئت أدفع ما في الجيب من ذهب ... واذ بصرت بأن الدين قد فدحا
فقال : عفوا ٠٠ فما نرجوه صفوكم ... وان ذكركم الاموال قد قبحا
فقلت : دونك شيكا بالتي هتكت ... لا بارك الله مالا جامدا ولحى
فقال : نعم الفتى ٠٠ والجود ديدنه ... لو أنهم طلبوا روحا بها سمحا

* * *

عند ديك الجن ـ على « العاصي »

وجلسة عند « ديك الجن » صافية ... كان النسيم بطيب الزهر متشحا
والغيم يعبث « بالعاصي » بلؤلئه ... كالطل داعب ريحان الهوى فصحا
وحولنا خفرات ، أين خمرتنا ... مما سقى لحظها الفتاك واكتسحا ؟!٠
قامت تمايل والارداف تنقلها ... حتى اذا عزمها من خصرها نزحا
غنت لنا من أناشيد الهوى نغما ... شغاف قلبي من الآهات قد ذبحا
قالت : هنا كان « ديك الجن » في بلدي ... يكابد السهد والالام والترحا
يبكي على « وردة » حزنا لمصرعها ... وقبل ذلك كم غنى وكم سجحا ؟
لم يترك الموت من ذكراهما أثرا ... وأسدل الصمت في بأسائه الوشحا
كذلك الدهر يطوينا برهبته ... فما حبيب نجا أو مدنف فلحا

* * *

يا جارح القلب هل داويت ذا شغف ... ألست ترحم قلبا في الهوى كدحا ؟
أينقضي العمر ٠٠ والعشاق ما شبعت ... من الغرام ، ودمع العين قد سفحا ؟
ان كان حزني لبعدي عن دياركم ... كم هش قلبي لذكراكم وكم فرحا ؟

* * *

وسكرة من لمى « حمصية » طلعت
« بالميني جوب » علينا تشبه الوضحا
لم أدر ماخصها الريحان اذ خطرت
به ، من الطيب والرمان ما منحا ؟!
بيضاء داعبها النسرين منتشيا
وقد رأى في ظلال الخصر منتدحا
قالت : أتيت ؟ فأهلا بابن بلدتنا
أنت المداوي اذا ما جرحنا أمحا
فقلت : لا تذكري الالام ان بنا
من المصائب ما أعيا وما كلحا
هات الكؤوس لعل الخمر تسعفنا
اني أرى ضوءها في دنها رمحا
فجاوبتني وشوق القلب مستعر
سل ما تشاء ولا يثنيك من أشحا
ثم استدارت وأخفت دمع مقلتها
وأحمر من خدها التفاح مفتضحا
فما عرفت ألطفا ما سكرت به
أم كان خمرا من الاحداق منتضحا
أم ريقها العذب أحياني بكوثره
فمال قلبي من الصهباء وارتجحا ؟
يا سكرة الطيب نفديها بمهجتنا
يا ليت دهرا من الاحباب قد ردحا
مروا كحلم من الاحلام وانصرفوا
وخلفونا نقاسي أمرنا البرحا
من مرجع عهدنا يوما ومسعفنا ؟
ومن يعيد الينا الزهو والفرحا ؟
أحلى الليالي لياليهم وقد عبرت
وأرغد العيش في أحضانهم سنحا

* * *

« أبو نواس »

« أبا نواس » جرعت الكأس مترعة
من اللذائذ لم تحفل بمن نصحا
لك السلام من الاقداح ان قرعت
وكل دن ببحر الروح قد سبحا
خصصت بالظرف تحياه وتنظمه
وخير شعر على الايام ما ملحا
قالوا : مجنت وذي الآثام تسكبها
وقال غيرهم : في حبه جنحا
وما وجدت سوى روح مجنحة
قد سجلت لرؤى الايام ما سنحا

* * *

« أبا نواس » جزاك الله مغفرة
ما أنت الا محب قوله صرحا
لولا « الوقوف على الاطلال » تمقته
لكنت أول من ناجى ومن ترحا

حمص ـ الدكتور عبدو مسوح

الى حاصدة

اسماعيل عامود

يوم يأتي الحصاد ، ينضفر الصبح غناء ، أكون يوم الحصاد
وجهتي مسرب المزارع في الريف ، ومرماي عبر أفق المراد

★ ★

.. وتجيئين ، أي صبح تراءى وله الشعر ذائب في فؤادي
ينبري وجهك الضحوك مع القمح نشيدا ، على السفوح الجياد
برهة تبهر الحقول ، وتضفي فرح الحقل للشذا ، والوراد
أي وجه أطل ـ فاتنتي السمراء ، قلبي منحته للسهاد
والنجود ، النجود حالمة الرؤيا تمناك زندها للرقاد

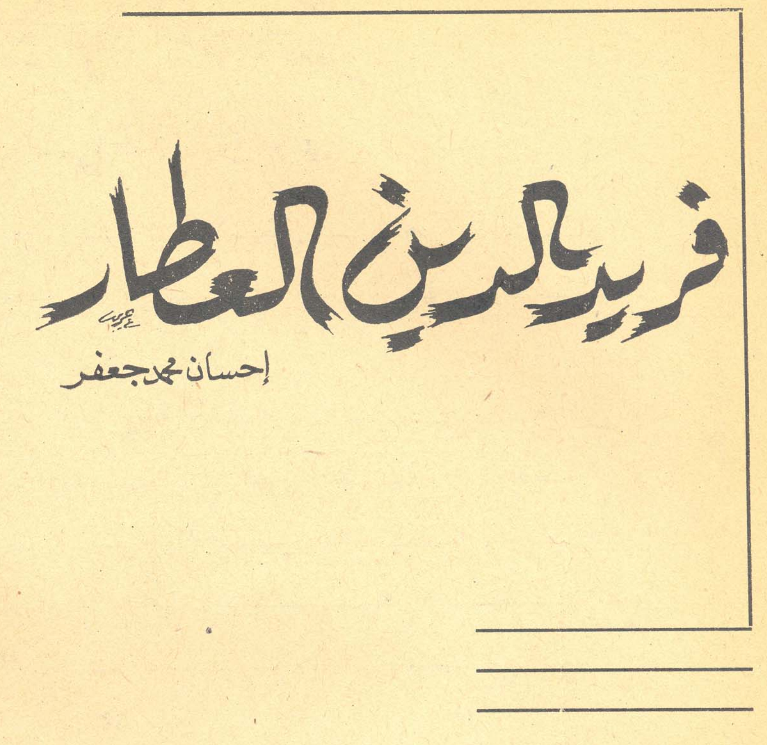
★ ★

يا لروع الحصاد يوم تهلين ، وبي للحصاد شوق الحصاد
أفتدي ندك المضمخ بالنعمى ، وأرتاح فوق صدر الوهاد
أنشد السلسبيل في زرعك الطامي ، شجيا ، وأجتني منه زادي
وعلى نورج البيادر في الضوء لقانا ... ومنجل منك حادي
تملئين الجرار رزقا كما الغيث يهمي على الجياع العباد
للعصافير غبطة الامل الريان في مشرف الحزون الصادي
ترسل الزقزقات في غرف الفجرصداحا وتمحي في البعاد
والفراشات ـ يا لرقص الفراشات ـ نشاوى يطفن اثر البوادي
تحمل الذكريات في مرح الصيف ، لطافا ، وترتمي في الايادي
وعلى كومة السنابل في الجرد ، حبيبي يجيء في الميعاد

★ ★

يوم يمضي الحصاد ، يحملني الدرب ، بقايا متيم بالحصاد
والحبيب الظلوم ، يومىء للسفح ، وداعا ، وموكبي في حداد
ما درى بي وللحصاد حياة دونها العمر حالم بالقتاد

اسماعيل عامود



فريد الدين العطار

إحسان محمد جعفر

يعد الشاعر الفارسي المتصوف أبو طالب أو أبو حامد محمد بن ابراهيم المعروف بفريد الدين العطار النيسابوري هو وسلفه أبو المجد السنائي وخلفه جلال الدين الرومي من أعظم شعراء التصوف لدى الفرس ٠ ولد في قرية قرب نيسابور تدعى ـ كدكن ـ سنة ٥٣٧ هـ ـ ١١١٩ م وعاش في نيسابور ٠ وكان أبوه أحد كبار عطاري ـ شادياخ ـ احدى ضواحي نيسابور ، فورث عطارته وثروته وصار منقطع النظير في الحكمة الالهية والطبيعية ومتضلعا في علوم الطب بعد أن تخرج على أستاذه مجد الدين البغدادي الذي كان طبيب السلطان محمد خوارزم مشاه ٠ وقد زاول العطارة واشتغل بمداوة الناس في صيدليته فاشتهر بالعطار ، ولم يكن لوفرة ثرائه يتقاضى اجرا أو ثمنا للدواء من أكثر مرضاه وقد ذكر في مثنوية ـ خسرونامه ـ انه كان كل يوم يجس نبض خمسمائة شخص ٠

ويروى في سبب اعتزاله العطارة وزهده في ثرائه العظيم ، ان درويشا مر به ذات يوم في حانوته وسأله شيئا ، فلم يجبه ، وأمره العطار أن ينصرف ، فقال له الدرويش : كيف تريد أن تموت ؟ فأجابه كما تريد أنت ، فقال الدرويش : أتستطيع أنت أن تموت مثلي ؟ فقال العطار : نعم ، وكان بيد الدرويش وعاء من خشب فوضعه تحت رأسه وقال : يا الهي ! ومات لتوه ٠ فتأثر العطار بهذه الحادثة تأثرا بالغا وزهد في حياته ، وترك عطارته ، وقصد صومعة الشيخ العارف ركن الدين الاكاف ، وقضى سنوات في حلقة الدراويش ، ثم خرج للحج ٠

ويذكر الدكتور عبد الوهاب عزام في كتابه (التصوف وفريد الدين العطار) ان الروايات الصوفية تكثر من ذكر الوقائع التي تنقل انسانا فجأة من الاضطراب في العيش الى التصوف كما هو الحال في سيرة ابراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي وجلال الدين الرومي ، وسواء أكانت الرواية صحيحة أم لم تكن كذلك فقد كان العطار صوفيا ، وهو في دكانه ، قبل أن ينقطع للطريق ! وقد نظم وهو عطار منظومتين على الاقل هما (أسرار نامه) و (مصيبت نامه)

وقد بلغ العطار بين أهل التصوف منزلة عظمى حتى لنرى جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية وصاحب المثنوي المعروف بقرآن الفرس يقول فيه : « لقد جاب العطار مدن العشق السبع ونحن ما زلنا في منعطف جادة » ٠

ويقال عن العطار انه صحب كثيرين من كبار المشايخ، وقرأ أربعمائة كتاب في التصوف ، وجمع آثار الصوفية ، وأهل السلوك في كتابه (تذكرة الاولياء) وآثر العزلة في أخرة من حياته ، وعكف على التأليف اذ بلغت تآليفه عدد سور القرآن ـ ١١٤ ـ ٠

وللعطار ديوان قصائد وغزليات عدد أبياته أربعون ألف بيت ، ومجموع أشعاره بما في ذلك المثنويات يربو على مائة ألف بيت ، ومن مثنوياته المشهورة ـ الهي نامه ـ

و ـ جوهر الذات ـ و ـ وصلت نامه ـ و صيت نامه ـ وسياه نامه ـ وبلبل نامه ـ وشتر نامه ـ ومختار نامه ـ و كل وهرمز ـ ومنطق الطير ـ والاخير أهمها ، وهو ملحمة الطير روقد مثل الهدهد فيها دور البطولة ، وهو أشهر آثار العطار وترجمت مؤخرا فصول منه الى العربية ٠

وله كتاب صغير في النصائح والمواعظ اسمه ـ بندنامه ترجمه المستشرق الفرنسي سيلو ستر دي ساسي ، الى الفرنسية ، وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية والتركية وشرح مرارا ٠

وقد عاصر العطار السلطان سنجر السلجوقي والسلطان محمد خوارز مشاه ، وقتله أحد مغول جنكيز خان في شادياخ سنة ٦٢٧ هـ ، وقبره لا يزال قائما في نيسابور في بناء مفرد ظاهر البلد ٠

وفريد الدين العطار شاعر الوجد في الادب الفارسي ، وهو في قصائده الوجدية شأنه الغناء في الله تعالى ، وذلك معروف لدى المتصوفة ، فلذلك نلقاه لا يثق بالعقل ولايعول عليه الا قليلا ، لان ما يقصده يكمن وراء العقل لا يحد بحدود ولا يدرك بمحسوس ، فالعقل عنده عاجز لا يستطيع ادراك الحقائق الخفية ، وقد سار كبار شعراء الصوفية على هذا النمط بما فيهم شاعر الباكستان وفيلسوفها محمد اقبال في العصر الحديث ٠٠ يقول العطار :

« الله لا يدرك بالقياس ، لانه ليس كمثله شيء ، فلا يعلمه الا نفسه ٠ وان حاول العقل أن يتصوره فانما يتصور العقل نفسه » ٠

أما العشق الالهي عند العطار ، فهو قوة خارقة تدفع الانسان ليعرف نفسه وخالقه ، وبهذا العشق يفني الطالب نفسه ، فيصير قطرة من البحر فيعرف البحر ٠٠!

« العشق يعرف صفاتك لانه من الجوهر ٠٠ انه يكشف الحجاب لانه رآك في وحدتك فعرفك » ٠

وهو اذ يحقر العقل بجانب العشق يعظم العقل ويكبره بجانب النقل أو التقليد ، يقول في ذلك « متى خلص الانسان من النقل أصاب الحقيقة » ويقول في مصيبت نامه هازئا بالتقليد : « ان ولد الاتان يتبع أمه فيظل بالتقليد حمارا ، فمن شاء أن يحكي غيره فهو حمار لا يستحق حتى العلف » ٠

ويرى العطار أن الصوفي الحق ينبغي أن يسبح في فلك الاسلام : « انك تجد طريقك لا حبا بالقرآن ، وان فيه لآلافا من الاسرار تدرك في كل لمحة ٠ » ٠

ويجمل العطار رأيه في هذا الموضوع بقوله : « اذا اجتمع العقل والدين والعشق أدرك الذوق كل الاسرار التي يبتغيها الطالب » ٠

ونتيجة لهذا المذهب أبغض العطار الفلسفة ، فلم يفعل فعل ابن رشد في التوفيق بين الحكمة والشريعة ، ولم يرد على الفلاسفة بعض آراءهم ، كما فعل الغزالي ، بل رد الفلسفة جملة ، وعاب الفلاسفة كلهم « ان للفلسفي طريقة زردشت ، والفلسفة والشرع متدابران » ٠

ويقول أيضا : « كيف تحاول أن تعرف العالم الروحي بفلسفة اليونان ؟! » وقد قابل في ـ مصيبت نامه ـ بين التصوف والفلسفة فقال : « اعتماد الفيلسوف على العقل الكلي ، واعتماد التصوف على الامر الكلي ، وان مائة عالم من العقل الكلي تزول في جلال أمر الهي واحد ٠ والحق ان العقل يستمد وجوده من الامر فلا يستطيع أن يستقل عنه ٠ » ويقول : « ان كتابي ابن سينا : ـ النجاة والشفاء ـ لا غناء فيهما فاهجرهما واعرف الشريعة ٠

وصفوة القول : كلام العطار في العقل والامر والفلسفة والشرع ليس بعيدا عن المسألة التي أثارت الجدال حقبا بين المعتزلة وغيرهم ، وهي مسألة حكم العقل : هل للعقل حكم في الاشياء يدرك به خيرها وشرها ، أو الحكم للشرع وحده ؟!! ٠٠

احسان محمد جعفر ـ اللاذقية

العباسة

مسرحية شعرية لعدنان مردم بك
عرض وتحليل : أبو طالب زيان

لعل الذين كتبوا عن العباسة لم ينتصفوا تاريخ هذه الانثى ، بل كان الامر عند بعض المسرحيين الذين صاغوا هذه الحوادث التي لعبتها العباسة ، أو كانت سببا في حياكتها على مسرح التاريخ حينا ، أو مسرح السياسة حينا آخر لا يعدو التناول من زاوية التأثير العاطفي ، أو اظهارها بمظهر الانثى التي أسلمت زمامها ، وسارت لا تريد الا هواها ، كأنها لا تخشى حكم التاريخ ، حتى قال الشاعر نفسه على لسانها مسوقا الى الغاية التي ينتهي اليها كل مؤرخ :

ما حيلتي فيما اقترفت
من الاذى وخلقت أنثى

والرأي عندي لا يحتاج الى أعمال فكر ، ما دمنا نركن الى التاريخ الصحيح ، فالرشيد حين عقد لجعفر على العباسة ، لم يكن يغيب عن باله ، أو يند عن خاطره ، ان بين الاثنين من العواطف المتأججة ، ما لا يمكن أن يقف في سبيله ، حتى يشترط هذا الشرط الذي يرفضه العقل ، ولا تسيغه الحنكة والتجربة ، ويصاب بالغضب حين يصل اليه أن أخته خانت عهده ، أو أن جعفرا خالف أمره ، وبنى بها سرا في الوقت الذي يعلم فيه جعفر أن ـ زبيدة ـ تكيد له ، وتتربص به ، وتترقب يوم الانقضاض عليه ٠

هذه واحدة ، وما أظن غيرها أوفر حظا منها في باب النكبة ٠٠ فمهما قيل من تعلات عن ترك الرشيد لزمام الامور الى جعفر فليس يغيب عليه طواياه وان قدمه حاكما ،

واقترب منه صهرا ، ووكل اليه خاصته يصرفها دونه بعقل هو للرشيد وسياسة لا يعترض عليها الخليفة نفسه طوال فترة التقرب، أو مدة الصحبة ، أو سني المصاهرة على أقل التقادير وأوهى الفروض .

على أن أسباب النكبة التي ردها ابن خلدون الى الدوافع السياسية البحتة ، هي أقرب ما تكون الى العقل ، ولصقت في باب كانت ترى زبيدة كسره ، لترى من ورائه العواصف تقتلع البرامكة ، ويرى العرب من طاقة مسرح آل برمك خاويا ، فيخلص الامر كله لابنها دون غيره من سائر الابناء

وليس ريب في أن هذا هو الفيصل في هذه القضية التي شغلت التاريخ بقدر ما شغلت التاريخ الادبي هذا الزمان الطويل .

فما هي وجهة النظر التي يرتضيها شاعر ، يريد أن ينسج مسرحه ، ويبعث رسومه ناطقة ان لم تتحرك هنا وهناك على هذا المسرح الذي شحن بوجهات نظر كثيرة .. ؟

في اعتقادي ان الشاعر عدنان مردم بك أدار حوادث مسرحيته على رأي ابن خلدون ، أو هو كان متكأه في الحوار والتسلسل والنسج .

فالمشهد التلقائي الذي تقفه صالحة وعاتكة على شرفة في قصر الخليفة ببغداد تنصتان الى أهازيج الشعب وهم يحيون الرشيد وابنيه : الامين والمأمون ، لا يخلو من همس بينهما حين يصل موكب جعفر الى قصر الخليفة ، وتنظران اليه معجبتين ،وان كان اعجابهما يشوبه التوجس من الساعين الذين يريدون الوقيعة ويبغون الدس، ويرتضون العواطف:

ان البواعث للاذى
يعزى الى خطل الهوى

عجبا وهل من حافز
يدعو (زبيدة) للاذى

ولقد أجاب الشاعر على هذا الحافز الذي دعا – زبيدة – الى هذا الكره وهذا الموقف :

أوليس جعفر خصمها
أبد الابيد بما أتى

سلب ابنها في زعمها
شيئا أعز من المنى

وأتى له بمشارك
من دونه ليث الشرى

أطماعه البحر الخضم
وهل لبحر من مدى

وكأن ثاقب فكره
قدر اذا حم القضا

وفي المشهد الثاني تظهر الاميرة ، وهي مطرقة حزينة ، فتحادثها صالحة وعاتكة ، وان كانت العباسة نفسها تنحو باللوم على جعفر وتتوجس خفية من هذا الذي يتربص به :

ما ضر (جعفر) لو تحاشى
النار أو حذر الشرر

ما باله وهو الاريب
يكاد يعثر من عور

من نام قرب النار لم
يأمن من النار الخطر

ولكل نار حين تعصف
ما يزيغ لها البصر

وأمرها ما راح ينهش
في الصدور من الوحر

ويبلغ الابداع الشعري قمته حين يقول عدنان مردم بك في موقف اليأس الذي وقفته العباسة وهي تصور نفسها هذا التصوير الذي جنح الى النظرة ، الى العباسة في أنوثتها المحرومة التي قضت عليها الوشايات :

أنا قصة تروى
وأشجاني على الدنيا حكايه

انـي سئمت مـن المصير
وضـقت مـن سخف الروايه

ومنعت عـن نيـل القليل
مـن المحبـة والعنايـه

كـم لوعـة في أضلعي
عصـفت تجلجـل عـن غوايـه

داريتهـا وكتمتهـا
خـوف الوشاية عـن داريـه

أنـا ريشـة في عاصـف
راحـت تهـاوى عـن غوايـه

وينتقل الشاعر نقلة ليست بالجديدة،وان كان السياق قد اقتضاها في الربط بين الحوادث ، اذ ليس يغيب عن الذهن ما يؤرق ليل زبيدة ، أو يقض مضجعها ازاء ما يأتيه الفرس نحو ابنها أو نحو العرب حتى تدع العباسة تفلت بين يديها حين أتيح لها الاجتماع بها ، فتسألها بتهكم قاتل عن صمتها واتهامها :

. . . .

. . . .

أم كـان صمتـك غفـوة

النشـوان حـين يحلـق

ولقد ترد العباسة على هذا الاتهام ، ولكن ردها لا يغني زبيدة عن التعريض لما يدور داخل نفسها ، وان كانت العباسة تفصح عما بها ، وتحدد موقفها بها ، وتحدد موقفها بين هذه الاتهامات :

أنـا قصة الرق التـي
عصـفت تجلجـل بالحديـد

أنـا نفثة الاوجاع مائجـة
بأضـلاع الشـهيد

مـن أيـن لـي النصـر العظيم
ورحـت أرسـف بالقيـود

ولا تنتهي النظرة الحاقدة كذلك في زبيدة ، بل تتأجج في جوانحها عندما تتعالى الاصوات محيية الرشيد وابنيه الامين والمأمون ، وتبرز النظرة سافرة ، عندما تعرض زبيدة بالمأمون وتتهم أرومته ، وتذكر جعفر صراحة دون مبالاة ، وأطماع فارس وريبتها منها في تقويض مجد العرب والقضاء على ابنها الامين .

ويمضي الشاعر يصور موقف الرشيد من جعفر حينما مثل بين يديه بعد أن أوغر صدرا .

وفي هذا المشهد تتجلى البراعة الشعرية في هذه المرآة العاكسة التي ينظر اليها جعفر من وجه ، وينظر اليها الرشيد من وجه آخر ، ثم لا يكون الا هذا الحديث الذي يردده الرشيد بينه وبين نفسه ، وصور الاطماع الفارسية تشده الى القضاء عليها ، ووأدها حين تكون .

ثم ينتقل الشاعر الى هذه الصورة التي جسمت الاطماع وكبرتها في عقل الرشيد ، وها ثاو ، ينظر ما تأتي به العيون ، عاكف يترقب الاخبار عل فيها ما يتذرع به فيما انتواه ازاء البرامكة .. وأي ذريعة أكبر في بابها من هذا الحدث الضخم الذي هز مشاعره ، الا أن يكون يحيى العلوي يطوف آفاق البلاد ، يبيت له بعد ما أراح نفسه وهدأ باله بسجنه :

كشـف السـر وانجلـى
ناصـعا عـن فواجـع
بـات مـا كـان خافيـا

أمـس يجلـى بسـاطع
يقتضـي الامـر فطنـة
قبـل شـحذ القواطـع

ويبرز الشاعر ، العباسة ومعها عاتكة على هذا المسرح الواجم الحزين ، وبخاصة بعدما بان أمر جعفر ، وانكشف ما كان خافيا ، وتظهر زبيدة بخبثها وسط هذا العجاج الذي تناثر غباره ، ويبين تهكمها ،فتمضي العباسة الى حال سبيلها بعدما أعيتها الحيل معها في تبرير موقفها والدفاع عن وجهة نظرها ، ولا ينسى الشاعر أن يضم الى تعبئة شعور الرشيد بالغل والحقد،ما أرسله الشاعر أبو العتاهيةفيهذه الاونة من شعر ، وما كان يدخل بين الرسائل الى الرشيد مدسوسا ، غير ما كان يحرض به الفضل بن الربيع .

ولا يفوت الشاعر الكبير أن ينطلق في مشهد الفكر والرأي الذي كان بين الرشيد وزبيدة ساعة احتدام الازمة وبلوغها قمتها في المضي أو التراجع ، في الاندفـاع ، أو النكوص ، حتى يكون جماع الرأي الذي يخرج بالرشيد من هواجسه ، ويدفعه الى ما انتواه ازاء البرامكة ، ذلك الكتاب الذي وشاه يحيى لجعفر ، يحمل الخيانة ، ويفيض بالغدر ، حتى قال الرشيد لنفسه بعد خروج الفضل من لدنه :

ان الدليـل جلـي
لمـن يـروم الدليـلا

الحـق فجـر مبيـن
لا يقبـل التأويـلا

والحـزم يأبى انتظارا
أو حـيرة وذهـولا

غير أن الشفاعة هنا بعد تعبئة الجو وكهربته ، لا تجد من الرشيد مسمعا ، أو لا توقفه عن الدفاع عن حياته التي اعتقد أنها ذاهبة ، فالمصانعة التي أجراها الشاعر علـى العباسة والردود المطولة التي لعب بها الرشيد ، لم تخرج به الا الى هذا الحكم :

أختـاه ليس مـع الهـوى
حكـم يـدوم ويسـتقيم

ولقد كان الفصل الاخير من المسرحية ، هو النتيجة التي رامتها زبيدة ، ورغب فيها بنو العباس ومن ورائهم العرب ٠٠ففي قصر جعفر يجتمع أشياعه ، ويستحثه أحدهم الفرار ، فيأبى جعفر ، وان حض أتباعـه على الرحيـل ، مضحيا هو بنفسه ٠

والواقع أن مشهد الرواية الواضحة ، سارت بالشاعر الى هذه الخاتمة التي اكتنفها الاسى من كل جهاتها ، حتى كان هذا المسرح الخاطف ، الذي تغيرت عليه هذه المناظر الحزينة التي جعلت العباسة تقول :

دربـي ودربـك واحـد
ان طـال أم قصـر السبيل

فيجيبها جعفر كاشفا ما كان يخبئه ويعمل من أجله :

انـي رسـمت نهايتـي
بيـدي وكنـت بهـا البصـيرا

ولم يكتف الشاعر في تفجيع هذه المأساة بما دار بين جعفر والعباسة ، تاركا الوداع يصور نفسه في أي وضع من الاوضاع ، بل جمع بين الثلاثة الذين يعنيهم الموقف : جعفر وأمه وزبيدة ، حينما يدخل مسرور يناديه وأصوات السلاح تقعقع خارج القصر تنتظر رأسه ٠

والبراعة هنا تمسك الشاعر ،فتجعل منه عرافا يكشف عما بذات جعفر الذي ضاق بالذل :

أمـاه مـن شـمم الرجولـة
طـرح أغـلال الذليـل

ما خير عيش حف بالاوجـاع
والـداء والوبيـل

كـل الـى عـدم يحـول
كمطـرف الظـل الظليـل

ويمشي جعفر بتجلد ، يتقدمه مسرور ، ناظرا الى أمه التي تقع على الارض وزوجه العباسة التـي تهتف شـاردة :

مـا كنت أدري غايتـي
والكون يجـري نحو غايه

امشـي ولا أدري المصير
مـن المسـير أو النهـايه

أنـا قصـة تروى وأشجاني
علـى الدنيـا حكايـه

على أنه لا يغنيني هنا في المسرحية المقارنـة ، أو الموازنة ، أو الدعوة الى المسرحية حتى يكون التسامـح أو التجاوب أو اللقاء ، وانما حسبي أني أدل عليها ، لا داعيا أو موجها فالمسرحية عندي كسب أدبي كبير ، وثروة طائلة من ثروات العربية ، أولى بأبنائها أن يرجعوا اليها ، فلعلها تكون الاولى والاخيرة في هذه الفاجعة ٠

القاهرة — أبو طالب زيان

اعاصير تشرينية واشعار اخرى

عرض وتحليل : سمر روحي الفيصل

طالعت مجموعة محمد قلعه‌جي الشعرية – أعاصير تشرينية – حين صدرت عن دار مجلة الثقافة بدمشق عام ١٩٧٤ ، وكونت عنها رأيا لم أذعه في تلك الايام ، اذ رأيت الشاعر مصطفى عكرمة ، في تقديمه للمجموعة ، قد أوفى على الغرض ، وأحسن الى المجموعة والشاعر حين تخلص تخلصا فنيا ، ينم عن ذكاء ووعي ، من ابداء رأي محدد في شعر محمد قلعه‌جي . فقد جعل تقديمه للمجموعة أشبه بصوى على طريق الاخذ بيد الشباب في ميدان الشعر . وهل نطلب من مقدمة ديوان أو كتاب أن تنقد ما تعرضه على الديوان؟! قطعا ليست هذه هي مهمة المقدمات . بل اننا نسارع الى القول ان – تقديم الكتاب – يعني التعريف به وبصاحبه ، ما دام الكاتب الذي يخط مقدمة الكتاب يعرف أن الكتاب الذي أمامه ما يزال مخطوطا بعد ، فليس من حقه ، اذن نقد الخاص ما دام خاصا . أما بعد ذلك ، أعني حين يطبع الكتاب ، فمن حق كاتب التقديم نفسه أن يتحدث ناقدا مضمون ما سبق له تقديمه . لكل هذا سررت لمقدمة الشاعر مصطفى عكرمة ، ولاشياء أخرى عنده سأتحدث عنها في وقت لاحق .

كان ذلك في تلك الايام ، وكان فيها أيضا معرفتي بالصمت الذي قوبلت به اشعار – أعاصير تشرينية – ، ما عدا العمل الذي قام به الدكتور عيسى الناعوري ، حين أخذ بجمع الشعر الذي قيل في حرب تشرين ، فأتى من الاردن لاجل هذه المهمة . وقد كتب الدكتور الناعوري حول الشعر الذي قيل في حرب تشرين مقالات عدة ، قرأت منها واحدة نشرت في مجلة – الثقافة – في تلك الفترة .

كان ذلك في تلك الايام . أما الان فقد سمحت لي مناسبة دعوت فيها بعض شعراء حلب ، ومنهم الشاعر محمد قلعه‌جي الى حمص لاقامة أمسية شعرية في رابطة الخريجين والجامعيين ، وكانت قد كلفتني بذلك . في ذلك اللقاء سمعت بعضا آخر من أشعار محمد قلعه‌جي ، ثم سمح لي بقراءة أشعاره الاخرى مجموعة في – كراس – خاص ، مما جعلني أعي مسارب أخرى انطلق فيها شعر هذا الشاعر ، الذي يمتهن عملا علميا بحتا .

ـ ١ ـ

تضم مجموعة ـ أعاصير تشرينية ـ أربع عشرة قصيدة ، أرخ منها ست قصائد ، وأهمل تاريخ الباقي . ونظرة الى القصائد المؤرخة تشير الى أنها كتبت في الشهر العاشر ـ تشرين أول ـ من العام ١٩٧٣ ، في ثمانية عشر يوما من ١٩٧٣/١٠/٩ ـ ١٩٧٣/١٠/٢٦ ، كما تشير قصيدة غير مؤرخة الى أنها ألقيت في ١٩٧٤/١/٢٤ ، بمعنى أنها كتبت في الفترة ذاتها . ولعل القصائد الاخرى ، عموما ، كتبت بعد ذلك بفترة وجيزة ، فقد نشرت المجموعة في العام ١٩٧٤ وان كان المرء لا يرى سببا محددا لتجاهل تأريخ القصائد الاخيرة .

علام تدل تواريخ كتابة القصائد ؟ ربما كانت الدلالة القريبة هي أن الشاعر قلعه‌جي قد انفعل بحرب تشرين انفعالا بالغا ، عبر عنه في هذه القصائد . فلقد تحدثت القصائد كلها عن هذه الحرب :

يا كل أوهام أرادوا زرعها
لن تورقي في أرضنا فتبدري
وتحطمي فربوعنا ما أنبتت
غير البطولة يا قيود المعتدي

كان الماضي أوهاما بدرتها حرب تشرين ، فماذا رأى الشاعر في هذه الحرب ؟ . في قصيدته الاولى أنشودة الى دمشق ـ رأى الشهيد الذي بذل دمه ، وفي قصيدته الثانية ـ اعصار ـ سجل بطولة الجنود ، وفي قصيدته الثالثة ـ أغنية المجد ـ كانت حرب تشرين مجدا ، وفي قصيدته الرابعة ـ كبوة وصمود ـ كان الماضي كبوة فارس ، وفي قصيدته الخامسة ـ ولادة ـ صور حرب تشرين على أنها ولادة جديدة للانسان العربي ، ثم على التوالي تتحدث القصائد التالية عن ـ مجد التراب ـ و ـ الحياة السمر ـ و ـ معنى الكرامة ـ و ـ وطني لن يصلب ـ و ـ حرب الولادة ـ و ـ الشفاه المطبقة ـ و ـ ثائر ـ و ـ أبعاد الزمن المطلق ـ و ـ ثمن التراب ـ . ولعلنا نبيح لانفسنا تلخيص مضامين القصائد في أنها تعتبر ما قبل الحرب كبوة ، وتعتبر الحرب نفسها ولادة وتجددا للانسان العربي . أما غير ذلك فلم ير الشاعر قلعه‌جي في الحرب شيئا .

ما سبب الهزيمة الماضية ؟ وما سبب النصر الجديد ؟ والمجتمع العربي ما حاله ؟ هل كانت الهزيمة ناتجة عن تخلفه وضياعه وترديه ؟ وهل جاءه النصر بقيم أخرى بديلة ؟ ما رؤية الشاعر للواقع الجديد ، الذي جاءت به الحرب ؟ .. أشياء كثيرة قد يفوتنا حصرها ، وما يهمنا منها الان هو أن الحرب قد عبرت وجدان الشاعر قلعه‌جي فعبر عنها قبل أن يهدأ انفعاله بها ، ولذلك رأيناه يعبر عن معانيها العامة (الكبوة ـ الولادة الجديدة ـ الابطال ....) .

لا شك أن الشاعر قلعه‌جي صادق في عاطفته ، ولكن الصدق لا يشفع وحده في الشعر . ولا شك أن الشاعر قلعه‌جي ذو موهبة شعرية ، ولكن ذلك لا ينفع وحده أيضا . فالشعر والادب عموما ، يقدم للناس قدوة ، أمثولة ، أنموذجا لمثل البشرية ترقى الى حد البطولة ، وهو مطالب بهذه القدوة في الازمات ، والهزيمة أزمة كالنصر تماما ، لانها تنعكس على النفس العربية ، وتعكسها أيضا .

الشعر الذي قرأناه في أعاصير تشرينية شعر مسطح ، ولا أقول انه سطحي ، فالتعبيران مختلفان . الشعر السطحي تدفعه العاطفة لاستخدام لعب شكلية لفظية ، فيروح يزاوج بين الالفاظ وينتقي أكثرها رنينا وخطابية ، مما يجعل هذا الشعر قوي التأثير في الجمهور وقت الحادثة ، لانه يكون منفعلا كما الشاعر . والشعر المسطح يستخدم العاطفة وسيلة لابراز مضامينه ، وهذه العاطفة تتفاوت بتفاوت الحدث ، وتختلف شدتها بشدته . العاطفة في الشعر المسطح ليست أساسا ، لان الشاعر يعتقد جازما ، ساعة الانفعال ، أن الامر حق ، وكذلك كانت المعاني التي عبر عنها الشاعر قلعه‌جي . فالبطولة التي برزت في الحرب حق ، وكذلك كون الهزيمة كبوة ، ولكن الشعر لايرى الواقع على هذه الصورة المباشرة . واقع الشعر شيء اخر ، واقع فني . انه واقع لما يتحقق بعد ، وقد لايتحقق أبدا ، أو يكون في سبيله الى التحقق ، وهذا ماتحدده رؤية الشاعر الخاصة ستبقى قصائد «أعاصير تشرينية» وغيرها من الادب الذي قيل في الفترة نفسها ، تسجل الانفعال المباشر بالحرب وستحفظ على أنها كذلك ، ولكن هل ستبقى طويلا ؟ لاأعتقد ذلك . سيبقى قول الشاعر جميلا بالاستعارات والصور البيانية التي استخدمها

كنا على شفة الجراح توجعا
تلهو بنا الاحداث والانواء
كالريح تعبث بالشراع تهزه
عنفا ويقضي دونه الشرفاء

ولكن هل الشعر جمال فحسب ؟ !!

٢

تقودنا هذه العجالة الى اشارات خاصة الى الشكل الشعري ، الذي استخدمه الشاعر قلعه‌جي ، فهو يستخدم في «أعاصير تشرينية» نوعين من الشكل الشعري . الاول : الشكل الخليلي ، وقد نظم فيه سبع قصائد في (١١٩) بيتا . والثاني : شعر التفعيلة ، وقد نظم فيه القصائد السبع الباقيات .

ليس هذا بغريب للوهلة الاولى فقد قرأت للشاعر قلعه‌جي عددا من القصائد قبل هذه ، وكلها يستخدم فيها الشكل الخليلي ، ثم أخذ ينحو منحى شعر التفعيلة ، في محاولة لتحديث قصائده ، لاعتقاده الحداثة في الشكل ، وهي في المضمون كما يؤكد ذلك أتباع النوعين من الشعر . ليس الشكل مهما الى هذه الدرجة في الشعر ، فسواء نظم على البحور أو على التفعيلة ، فان

الامر الهام هو قدرة الشاعر على ايصال تجربته الى القراء ·

واذن فلم نقف عند الشكل لهذا الغرض ، وانما استرعى انتباهنا عدم حيدة الشاعر قلعهجي عن البحر الكامل في القصائد الخليلية ، وتفعيلة الكامل وقد أصابها الاضمار ، والوافر وقد أصابها العصب ، في شعر التفعيلة ماعدا قصدة خليلية واحدة « أغنية للمجد » جاءت على البحر البسيط ·

لنقرأ المقطع الاول من القصيدة الاولى ـ أغنية الى دمشق ـ ، وهي قصة حديثة من شعر التفعيلة ، يقول الشاعر قلعهجي :

رأيت الله مبتسما
على أفواه جند الحق والوطن
على شفتي شهيد لف بالكفن
رأيت دماءه غسلت ،
بقايا العار
بقار الشوق والالم ·

سنرهق ، نوعا ما ، اذا ما حاولنا التماس تفعيلة الوافر ـ مفاعلتن ـ في جريانها على نسق واحد · ولكننا اذا ضممنا الجمل الشعرية الى بعضها ، خرجنا بثلاث عشر تفعيلة ، أصاب ـ العصب ـ ست تفعيلات منها · واذا ما انتقلنا الى القصيدة الثانية ـ اعصار ـ فقرأنا منها البيت الاول ، وهي قصيدة خليلية من الكامل :

فوق الهضاب الشم كان لقاؤنا
والشوق بركان جرى وسعار

وجدنا أربع تفعيلات أصابها الاضمار وتفعيلة واحدة جاءت صحيحة ، والسادسة أصابها القطع (متفاعل ، تنقل اذا شئنا الى : فعلاتن) وهكذا في القصائد التالية ، ف ـ كبوة وصمود ـ من الكامل ، عروضها وضربها مقطوعان وان كنا لا نعرف عروضا مقطوعة · و ـ الشفاه المطبقة ـ و ـ ثائر ـ و ـ ثمن التراب ـ و ـ ولادة ـ من الكامل أيضا ، وقد كثر زحاف الاضمار في كل واحدة من هذه القصائد ·

علام يدل ولوع الشاعر قلعهجي بالبحر الكامل ، وبتفعيلته مع تفعيلة الوافر ؟ · ليس عندي جواب محدد لهذا الان ، ولكنني أعرف شيوع تفعيلة الوافر في الشعر الحديث شيوعا ملحوظا جعلها التفعيلة الاثيرة لدى الشعراء · على أن كثرة الزحاف مأخذ يوجهونه ، عادة ، الى الشعر ، لان الزحاف مرض طارىء على التفعيلة ، يريحها من رتابتها ، كما تريح الوعكة البسيطة الانسان من مشاغل الحياة ، ولكن ـ المرض ـ اذا استشرى كان كمرض الانسان الطويل ، مملا قاتلا ، ولهذا استملحوا الزحاف ، ولكنهم لم يجعلوه قانونا شعريا ·

★

ـ ٣ ـ

لقد ذكرنا في عنوان هذه الاسطر أن هناك أشعارا أخرى ، ونقصد بها تلك التي قرأناها في ـ الكراس ـ الخاص بالشاعر · ولن نسمح لانفسنا ، هنا ، بعرض ما فيها مفصلا لبعد القراء عن تناول هذا الشعر ومحاكمته · ولكننا نرى في هذه القصائد بشير مستقبل شعري لمحمد قلعهجي ، ففي الموضوعات التي يحدد فيها رؤيته ،يبرز لنا شخصا آخر مختلفا عن ـ أعاصير تشرينية ـ · يقول في مقطوعته بعنوان ـ المسيرة التي لن تتوقف ـ :

غدا يتحرك الركب
ويوصد دونه الدرب
غدا ويضمه لحد
ويبقى العبد والرب
فلا مال يؤانسه
بغربته ولا صحب
سيبكي حوله الاهل
ودمع العين ينصب
لايام قليلات
ويهدأ منهم القلب

سيذكر بعض أيام
ويذكر قوله العذب
ستخفت بعد ذكراه
وينضب ذلك الحب

هل يرثي الشاعر انسانا معينا ؟قطعا لا يرثي بها شخصا محددا ، حتى ولا الانسانية عموما · ما يريد قوله ان هناك حقيقة أزلية هي أن الموت مصير كل انسان ، وعندما يحل هذا الموت سيحزن الاصدقاء والاهل فترة وجيزة ثم يعودون الى سابق عهدهم ، لان الحياة ، دوما ، أقوى من الموت · تلك حقيقة نتجاهلها مع أنها سنة الحياة ،وتلك خلة نعتبرها ، في بعض الاحايين ، خللا في قيمنا ، ولكنها ، في الحقيقة ، شعار الحياة الباقي أبد الدهر · وها هو الشاعر قلعهجي يذكرنا بها ببساطة وانسياب ، بساطة مجزوء الوافر الذي استخدمه ·

ثم ان هناك نوعا من محاولة القصة الشعرية في قصيدته الحديثة ـ قراءات فيمذكرات خادمة صغيرة ـ ،وهي محاولة ناجحة لولا ضعف الحظ الدرامي فيها ، ذلك الضعف الناتج عن بعض الالفاظ المباشرة التي استخدمها· ثماننا لا نعرف لماذا يكرر لفظ ـ الخادم ـ في كثير من هذه القصائد ؟ هل هناك خادم ما ، ذات تأثير على ذات الشاعر ، يدفعه لتكرارها دوما ـ قصيدة : سيدتي ، وغيرها مثلا ـ ؟!! ·

ان قراءة هذه القصائد ، وبخاصة قصيدته الحديثة ـ لماذا ؟ ـ تدفع المرء الى الاعتقاد بأن هناك شاعرا موهوبا ، لم يستقر على شكل شعري محدد بعد ، فهو حائر بين الشعر الخليلي وشعر التفعيلة ، مما يؤكد نظرتنا الى شعره المسطح في ـ أعاصير تشرينية ـ ، فشيء من هذا الشعر التشريني لم نلمحه في الاشعار الاخرى ، بل رأينا فيها شاعرا يختلف في رؤيته ، وعمله الشعري ، عن الشاعر الذي قرأنا له ـ أعاصير تشرينية ـ ·

أحزان الصمة القشيري

خليل خلايلي

أسيت على ريا وسرت لمابيا / كأني وريا ما عرفنا التصابيا
كأني واياها على الصفو لم نبت / ليالي يبقى سحرهن لياليا
ولم ألثم العينين والجيد واللمى / ولم ألق في بحر الغرام المراسيا
فاني برغم البعد والهجر والجفا / لاشتاق عينيها وألتذ دائيا
وأعنو لذكراها وفي الصدر آهة / تكاد حمياها تذيب الحوانيا
فرياي لا أرضى سواها حبيبة / وان مزقوا لحمي ودقوا عظاميا
فيا ليتني داويت جهلي بحكمة / وعشت على حال تغيظ الاعاديا
وليت قلوصي لم تغادر مراحها / ولم تلق في عرض الطريق الدواهيا
ولم أجب الدنيا على ظهر ناقة / تحن لاعطان هناك ورائيا

★

« بكى صاحبي لما رأى الشام دونه / وأيقن أنا (١) » مزمعان التنائيا
«وحالت بنات الشوق» والبشر معرض / فضاع على سيف الصحارى ندائيا
ونحت على أهل حميد فعالهم / وقد كنت قبل اليوم للاهل قاليا
تذكرت نجدا والعرار وجيرة / عزيز عليها أن يطول التقاليا
«بنفسي تلك الارض ما أطيب الربا»(٢) / وما أحسن المصطاف والجو شاتيا
« وأذكر أيام الحمى ثم أنثني »(٣) / على كبدي للارض يا رب جاثيا
فيارب لا تجعل سواها مقيلنا / حياتي واما مت مسقط راسيا

★

عجبت لارض الشام تبدو كئيبة / وما جنة الفردوس الا شآميا
تمنيتها دهرا لو أني أزورها / وها أنذا فيها أضيع الامانيا
يمينا لعمرو الله ما ذقت راحة / ولم أك في يوم من العمر راضيا
وما أنا الا كالاسير معذب / وان طاب عيشي أو تكاثر ماليا
فما المال الا أن يكون لحاجة / وما حاجة الانسان ان بات عانيا ؟
فيا نسمات النيربين ألا احظري / على المدنف المضنى فدتك المآقيا
ويا جارة الأحباب بالله رددي / على مسمع الاحباب مني سلاميا
ويا أثلات الجزع بلغن في الضحى / وصاتي اذا هب النسيم الشماليا
وقلن لاهل الحي : لا تبرحوا الحمى / فان غريب الدار قد مات صاديا

---

١ ــ البيت لامريء القيس .

٢ و ٣ ــ الشطرتان للصمة بن عبد الله القشيري .

صرح عظيم في حياتنا

يستعد وطننا السوفياتي للاحتفال بأبهة وعظمة بالذكرى الستين لقيام ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى ٠ ويطبق السوفييت ، وهم يستقبلون هذه الذكرى المجيدة مقررات المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي بطريقة منطقية وبقيادة الحزب اللينيني ويحرزون انتصارات جديدة في البناء الشيوعي ، يثقون بحزبهم ثقة بلا حدود ، معتبرين كل ما يفعله من صنع أيديهم ٠ ولا يمكن أن يكون الامر على خلاف ذلك ما دام الحزب لا يعتبر أن هنالك مصلحة تعلو على مصالح الشعب٠

وليست مقررات المؤتمر المنعقد بكامل أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي يوم الرابع والعشرين من أيار سوى الدليل القاطع الساطع المقنع ٠

ولقد بحث المؤتمر القضيتين التاليتين :

ـ مشروع دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ٠

ـ النشيد الوطني للاتحاد السوفياتي ٠

وبعد الاستماع الى تقرير الرفيق ليونيد بريجنيف ، السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، رئيس الهيئة التأسيسية ، حول مشروع دستور اتحاد الجمهوريات السوفياتية ، ومناقشته ، فقد أقر المؤتمر لزوم المشروع المقدم من قبل اللجنة وضرورته ، وعرضه على اللجنة المركزية لمجلس السوفييت الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية (١) ، مع التوصية بأن يقدم مشروع دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية للاستفتاء من قبل الشعب برمته ٠

وأقر المؤتمر المنعقد بكامل أعضائه نص الدستور والصيغة الموسيقية للنشيد الوطني للاتحاد السوفياتي ، ورفعه الى اللجنة المركزية لمجلس السوفييت الاعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية لاقراره والتصديق عليه

ويبرز التقرير الذي تقدم به ليونيد بريجنيف الى المؤتمر المنعقد بكامل الاعضاء دليلا عمليا عميقا على الحاجة الى دستور جديد ويوضح ما جرى من التغيرات الهائلة من جميع وجوهها في المجتمع السوفييتي وفي العالم أجمع ، منذ سنة ١٩٣٦ ، سنة اعتماد الدستور المطبق حاليا في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، كما يبرز التقرير جميع أبعاد تأثير الدستور الجديد في حياة البلاد ، ويبرز أهميته الدولية ، ويطرح المهام المتعلقة بالاستفتاء على المشروع من قبل الشعب بأكمله ٠

واجابة على السؤال : لماذا كان لا بد من ايجاد دستور جديد ؟ فقد أعلن الرفيق ليونيد بريجنيف أنه قد حدثت في بلادنا وفي مجتمعنا برمته تطورات عميقة خلال الاربعين سنة التي انقضت بعد اعتماد الدستور الحالي ، فلقد أقيم في الاتحاد السوفياتي مجتمع اشتراكي ناضج ومتطور ، وشملت

---

١ ـ اللجنة المركزية لمجلس السوفييت الاعلى : بموجب دستور ١٩٣٦ ، هي اللجنة التي تلعب في الاتحاد السوفياتي تقريبا دور رئيس الدولة في النظام البرلماني ، وهي مؤلفة من ثلاث وثلاثين عضوا : رئيس وستة عشر نائب رئيس ـ واحد عن كل من الجمهوريات المتحدة ـ وسكرتير وخمسة عشر عضوا ٠ وبذلك يتجلى في قلب السلطة التنفيذية الطبيعة الاتحادية التي تتصف بها الدولة ٠ وهذه اللجنة منتخبة من قبل مجلس السوفييت الاعلى الذي هو برلمان الاتحاد السوفياتي ٠

تغيرات هامة وأساسية جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، وتغيرت ملامح اقتصاد البلاد تغيرا جعله مختلفا اختلافا قطع كل وجه للشبه بينه وبين ما كان عليه من قبل ، اذ تسيطر الملكية الاشتراكية اليوم سيطرة تامة ،وتكون جهاز اقتصادي قوي وحيد يتطور على أساس نظام تتوافق فيه الثورة العلمية ـ الفنية مع الميزات الاشتراكية ، وهو يعمل بنجاح تام ٠

وكذلك فقد تبدل المظهر الاجتماعي للمجتمع السوفياتي وتبدلت الطبقة العمالية التي تعد بين صفوفها عشرات الملايين من الاشخاص المثقفين المدربين فنيا والناضجين سياسيا ، وتزايد نشاطهم الاجتماعي واتسع اسهامهم في ادارة الشؤون العامة اتساعا عظيما ، وتبدلت الفلاحية التي تكونت مفاهيمها على الاساس الاشتراكي ، فالفلاح في الكولخوز مسلح بالفنون الحديثة ، ومستواه العلمي ، وطراز معيشته لا يختلفان في غالب الاحيان في شيء عن المستوى العلمي لسكان المدن وعن طراز معيشتهم ٠وأصبحت طبقة رجال الفكر اشتراكية فعلا وشعبية ، ويتزايد ثقلها النوعي في مجتمعنا ٠ وبكلمة ، فان التجانس الاجتماعي في المجتمع السوفياتي بتزايد مستمر ٠

وكذلك فقد أصبح تساوي الامم في بلادنا حقيقة واقعة وليس فقط كتابة في النصوص التشريعية ، وبلغت جميع الجمهوريا ت السوفياتية اليوم مستوى عالمن التطور ٠

وتدعمت أواصر الروابط الوثيقة القائمة بين الطبقة المالية والطبقة الفلاحية في الكولخوز وطبقة رجال الفكر الشعبيين ، وتتلاشى تدريجيا الفوارق الاساسية بين التجمعات الاجتماعية الرئيسية ، وتتقارب جميع شعوب البلاد وجميع عروقها أكثر فأكثر بصدق وصفاء، وتكون مجتمع تاريخي جديد من الناس ألا وهو الشعب السوفياتي ٠

وبفضل البناء الاشتراكي المتطور ، وبفضل مرور جميع طبقات الشعب على الاوضاع العقائدية والسياسية للطبقة العاملة ، فقد تحولت الدولة السوفياتية التي رأت النور وهي ديكتاتورية طبقة الكسبة الكادحين ، الى دولة للشعب بأكمله ٠

ويضطلع شعبنا ، القوي بمكتسباته ، بمهام جديدة بقيادة الحزب الذي تصاعد دوره هو أيضا في الظروف الحالية ، وذلك بخلق القاعدة المادية والفنية للشيوعية وبالتحويل المتدرج للعلاقات الاجتماعية الاشتراكية الى علاقات شيوعية ، وبتنشئة السوفييت في روح التعاليم الشيوعية ٠

وتغير الوضع الدولي للاتحاد السوفياتي تغيرا كبيرا ، فقد انتهى الحصار الرأسمالي لوطننا ،وأصبحت الاشتراكية نظاما عالميا ، وضعفت مواقع الرأسمالية ضعفا شديدا ، وظهرت عشرات الدول الفتية ذات السيادة محل المستعمرات القديمة ، وتعاظمت مكانة بلاد السوفييت دوليا وتزايد نفوذها تزايدا كبيرا ،وتغير تبعا لذلك ميزان القوى في الميدان الدولي تغيرا جذريا ، وظهرت امكانية حقيقية لتلافي وقوع حرب عالمية جديدة ٠ ورغم كون تهديد هذه الحرب قد ضعف ضعفا شديدا ، فلا يزال هنالك الكثير من الاعمال لا بد من انجازها ، ولا يزال هنالك كفاح مرير في هذا المضمار لا بد من خوضه ٠

وقد تجلت هذه التبدلات والتغيرات جميعا في مشروع الدستور الجديد ، فهو حصيلة عمل كبير وطويل يساير تعاليم الحزب ومنهاجه ، ومؤتمره الخامس والعشرين بخاصة ٠ ولقد أبقي في المشروع على الخطوط المميزة لدستور من طراز اشتراكي كان قد لحظها ـ فلاديمير ايليتش أوليانوف ـ لينين (مؤسس النظام السوفياتي) ، وكذلك أبقي على العديد من الترتيبات والاعدادات المبدئية الواردة في النظام الاساسي الحالي ، وتطورت في المشروع ٠

ويعمم مشروع الدستور الجديد كل ما في الخبرة التأسيسية لتاريخ السوفييت ، ويغني هذه الخبرة بمضمون جديد يستجيب لمتطلبات عصرنا ٠ انه يعتمد على التجديد والتحسين مما تم تحقيقه في السنوات الاخيرة على التشريع السوفياتي ، وينتفع بتجربة التطوير التأسيسي للبلاد الاشتراكية الشقيقة ٠

ويتحدث المشروع،وهو يعكس التغيرات العميقة الجارية في بلادنا ، عن خلق مجتمع اشتراكي في الاتحاد السوفياتي متطور ، وعن اشادة الشيوعية كهدف أسمى للدولة السوفياتية ، ويبرز واقع كون دولتنا دولة الشعب بأكمله ، ويقدم بيانا متطورا للدور الرئيسي والقيادي للحزب الشيوعي السوفياتي يضمن النظام المبدئي الذي تكون بموجبه الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج أساس النظام الاقتصادي للاتحاد السوفياتي ٠

وصرح الرفيق ليونيد بريجنيف « ٠٠٠ ان ما يتضمنه المشروع من ميل أساسي نحو الجديد ، هو توسيع الديمقراطية لاعداد السوفييت ، وان ما سوف يتطور قبل كل شيء هي فعاليتهم ٠ لقد حددت وسائل تدعيم الروابط بين السوفييت ،وتدعيم الروابط بين نوابهم وبين الجماهير٠ وقد توضح بالتفصيل الدور الهام الذي تلعبه في حياة البلاد النقابات والكومسومول والتعانيات وبقية المنظمات الاشتراكية الشعبية والجمعيات العمالية ٠

ولقد أغنيت بشكل عظيم الترتيبات الواردة في الدستور الحالي المتعلقة بحقوق المواطنين السوفييت ، واضافة الى اعلان المبدأ العام في المساواة في حقوق المواطنين ، فقد تعمقت وتطورت وتوسعت الترتيبات حول حقوق الاشتراكية الاقتصادية المحددة المتعلقة بأسس حياة الناس نفسها ، ألا وهي : الحق في العمل ، والحق في الراحة ، والحق في الحماية الصحية ٠٠ الخ ٠ وعولجت بشكل أكثر اكتمالا من ذي قبل الحقوق السياسية ، وحريات مواطني الاتحاد السوفياتي ٠ وعلى ذلك فمن المهم القول ، وفقا لما ورد في المشروع ، ان حقوق المواطنين وحريتهم لا يمكن لها ، ولا يجوز أن تستغل ضد النظام الاجتماعي الاشتراكي ، مما يؤذي مصالح الشعب السوفياتي ويضر بها ٠

قال الرفيق ليونيد بريجنيف : « ان على كل سوفياتي أن يدرك بوضوح تام أن الضمانة الاساسية لحقوقه هي في النتيجة قوة الوطن وازدهاره ، ولذلك فعلى كل مواطن تحمل مسؤوليته نحو المجتمع والقيام بواجباته بضمير حي نحو الدولة ونحو الشعب ٠ لهذا السبب ، فقد أبرز المشروع واجب المواطن في أن يعمل بشرف وبضمير ، وأن يدافع عن الوطن ٠ ان واجب حماية مصالح الدولة السوفياتية ، والمساهمة في حماية النظام العام والكفاح ضد الاسراف وتبذير الاموال العامة ، ومراعاة الطبيعة وحماية ثرواتها والاهتمام بالمحافظة على الثروات الزراعية قد حظيت كذلك بصفة الالزام الدستوري ٠

ويلزم المشروع كذلك بالعناية بتربية الاطفال وبتعليمهم ، وبأن يجعل منهم أعضاء جديرين بالمجتمع الاشتراكي ٠

ويتضمن المشروع فصل « التطوير الاجتماعي والزراعة » حيث ورد أن الدولة تهتم بتطوير التعليم والعلم والفن ، وبتحسين ظروف عمل المواطن ومعيشته ٠

وشرح في المشروع بوضوح وجوب تدعيم الشرعية الاشتراكية والنظام الاشتراكي مستقبلا ٠ ولقد أنجزت اللجنة المركزية للحزب ، وأنجزت الدولة السوفياتية عملا عظيما في هدف اصلاح التشريع السوفياتي ، وخلق ضمانات صلبة ضد كل خرق لحقوق المواطنين ، وضد مفاسد البيروقراطية ٠ وبتعميم هذه الضمانات ، اذا صح التعبير ، فان المشروع يبرز أن واجب أجهزة الدولة جميعا ، والموظفين والمنظمات الشعبية والمواطنين مراقبة تنفيذ أحكام الدستور والقوانين ٠

وقد احتفظ المشروع بالخطوط الاساسية للبنية الاتحادية للاتحاد السوفياتي التي برهنت على صحتها جليا ٠ ومن شأن حل قضايا بنية الدولة الوطنية تحقيق تجميع ديموقراطي منتظم للمصالح المشتركة للاتحاد متعدد القوميات مع مصالح كل من جمهورياته وأن يحقق انفتاحا متعدد الاطراف وتقاربا مستمرا بين جميع شعوب وطننا وعروقه ٠

ويشير المشروع وهو يبرز مرحلة جديدة في تطوير الاقتصاد الوطني ، الى أن اقتصاد الاتحاد السوفياتي قد تحول الى مركب اقتصادي وحيد شامل لجميع حلقات الانتاج الاجتماعي والتوزيع والمقايضة على أرض البلاد ٠

ويرسخ المشروع كذلك مبدءا هاما في الاقتصاد الاشتراكي كتجميع الادارة المركزة والمبرمجة مع الاستقلال الاقتصادي والمبادرة في المشاريع وفي التجمعات ٠

ولقد أورد للمرة الاولى في الدستور فصل خاص ـ السياسة الخارجية ـ ، ويذكر هذا الفصل أن الدولة السوفياتية تطبق بطريقة متوافقة مع مبدئها ، سياسة سلام لينينية ، تكافح في سبيل تدعيم أمن الشعوب وفي سبيل تحقيق تعاون دولي واسع ٠ والفصل الخاص ـ الدفاع عن الوطن الاشتراكي ـ قد ورد فيه كذلك لاول مرة ٠

وصرح الرفيق ليونيد بريجنيف أن اختيار دستور جديد سوف تكون له أهمية استثنائية في عظمتها في حياة البلاد ، ومن شأن تطبيق مبادئه أن يرفع الى مستوى طبيعة أرقى ، جميع فعاليات الدولة الاقتصادية وجميع أعمال أجهزة السلطة وأجهزة الادارة ٠

وسوف يفيد الدستور كأساس للاكتمال المقبل للتشريع السوفياتي ، ويجب على أساسه أن تبلغ حد الكمال ٠ ولسوف يكون اقرار التشريعات الجديدة للجمهوريات المتحدة والمستقلة والعديد من الاجراءات التشريعية الاخرى قلب مجلة الانظمة والقوانين في الدولة السوفياتية التي بدأ تكاملها بقرار المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ٠

بنفس الوقت ، يجب أن يؤدي الدستور الجديد الى تحسين عظيم لفعالية جميع الاجهزة ، محققا تطبيق القوانين السوفياتية تطبيقا دقيقا ، وهذا يتعلق بالوزارات العامة وبالمحكمة وبالتحكيم وبأجهزة أخرى ادارية وبالرقابة الشعبية ٠ وينتظر الحزب من هذه الاجهزة جميعا مزيدا من المبادرات ومن روح المبدأ وعدم التساهل في الكفاح ضد جميع المخالفات للنظام الشرعي السوفياتي ٠

والدستور ناظم للجميع ، فهو ناظم للسوفييت من جميع المستويات ، كما هو ناظم للحكومة وللوزارات والمقاطعات ، وعلى أجهزة السلطة المحلية مراقبة فعالياتها

باستمرار وفقا لمتطلباتها ٠ وان منظمات الحزب لمدعوة لان تكون أكثر مطالبة نحو الشيوعيين الذين يديرون أجهزة الدولة ، ونحو المنظمات الاقتصادية ، في مجالات ممارستها لواجباتها التأسيسية ٠

وسوف يمكن تطبيق الدستور الجديد ملايين السوفييت من الانخراط بمزيد من الفعاليات في ادارة الاقتصاد ، وفي مراقبة فعالية الجهاز الحكومي ٠

وسوف يتجاوز اقرار الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي حدود وطننا الى مدى بعيد ولسوف يظهر للعالم أجمع كيف تتطور الدولة الاشتراكية ، وما هو المعنى العميق للديمقراطية الاشتراكية ، وسوف يظهر الاشكال الشتى والقدرة العظيمة للمشاركة الفعلية المتزايدة للكتل الشعبية الواسعة في ادارة شؤون الدولة والمجتمع ٠

سوف يظهر الدستور الجديد بشكل مقنع أن الدولة الاولى للاشتراكية المظفرة قد سجلت الى الابد على علمها كلمة « السلام » باعتباره المبدأ الاسمى لسياستها الخارجية وفقا لمصالح الشعب السوفياتي ومصالح جميع الشعوب الاخرى على هذا الكوكب ٠ وسوف يغني الثورة العامة من تجربة الاشتراكية العالمية ٠ وسوف تكون المنجزات الاشتراكية المظفرة المنعكسة في دستور الاتحاد السوفياتي نموذجا ملهما لشعوب البلاد التي اختارت حديثا طريق التطور الاشتراكي ، ولسوف تضيف تأكيدا للكتل العاملة في العالم الرأسمالي ، المكافحة في سبيل حقوقها وفي سبيل تحريرها من نير الاستغلال الرأسمالي ٠

انه لعمل ذو شأن عظيم ، وذو مدى كبير ، ذلك الذي يتوجب انجازه ، وما دام مشروع الدستور الجديد سوف يطرح للاستفتاء من قبل الشعب بأكمله ، فينبغي اقامة علاقة عضوية بين الاستفتاء على المشروع وبين الاستعدادات للاحتفال بالذكرى الستين لاكتوبر المجيدة ، لان الشعب السوفياتي سوف يصوت على وثيقة تعكس المنجزات الرئيسية للثورة ، طريق اشادة المجتمع الجديد الذي اخترناه ٠

المهمة هي قبل كل شيء توفير أوسع مدى للاستفتاء على المشروع ، وبجو من الحرية المطلقة ، والجدية الحقيقية ، وفي جذب الكتل العمالية لممارسة حقها وواجبها في الاستفتاء ٠

وبينما يتابع الشعب السوفياتي كفاحا عنيفا لتطبيق مقررات المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ، فان الاستفتاء على مشروع الدستور الجديد من قبل الشعب بأكمله سوف يساعد على تنشيط الحياة الاجتماعية أكثر فأكثر وايقاظ قوى جديدة خلاقة داخل الكتل الجماهيرية ، وسوف يعطي بعدا جديدا للمباراة الاشتراكية ، ويبرز مسؤولية كل واحد في العمل المكلف به ٠

ويتركز واجب المنظمات والاجهزة الحزبية في أن تكون على رأس الاستفتاء على مشروع الدستور من قبل الشعب برمته ، والمساهمة في شرحه وبسطه على أوسع مدى ٠

ان الاستفتاء على المشروع قضية تهم السوفييت ، فعليهم اشراك جميع البالغين من أفراد الشعب في البلاد بهذا العمل ٠ ان الحزب لينتظر أن تشترك بالاستفتاء على المشروع المنظمات الشعبية الجماهيرية ، وفي المقدمة النقابات والكومسومول والاتحادات الفنية وتجمعات العلماء ، بفاعلية وبعزم ٠

ان الوسائل الكبرى للاعلام والدعاية لمدعوة لان تلعب دورا خاصا : احترام أصوات العمال وايضاح مجريات الاستفتاء وشرحها وتفهمها بمهارة وبنشاط وبعزم ٠

هذه هي المتطلبات المترتبة على صحافتنا وعلى أجهزة التلفزة لدينا وعلى اذاعتنا ، ويجب البرهان على روح التصميم والصلابة في الدفاع عن معتقداتنا وعن مبادئنا في جدلنا مع أعدائنا الطبقيين ٠

وباختصار ، قال الرفيق ليونيد بريجنيف : « يجب أن يكون الاستفتاء على مشروع الدستور الجديد قضية ذات أهمية أولى لجميع المنظمات ولجميع كوادرنا » ، ولا شك في أن استفتاء عادلا حسن التنظيم سوف يحسن الميزان الاقتصادي والسياسي لهذه السنة ، سنة اختيار واقرار الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي وللذكرى الستين لاكتوبر المجيد ٠

ان السوفييت ليستقبلون بشوق حار وباستحسان وقبول ورضى مقررات مؤتمر اللجنة المركزية بكامل أعضائها ، ويدعمون بالاجماع السياسة الداخلية والخارجية والفاعلية الخلاقة والمثمرة للجنة المركزية والمكتب السياسي للجنة المركزية ، وعلى رأسها السكرتير العام للجنة المركزية الرفيق ليونيد بريجنيف ، ويتجمعون متراصين أكثر فأكثر حول الحزب اللينيني المنظم والملهم لجميع انتصاراتنا ٠

وسوف يكون اختيار الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي واقراره صرحا ونصبا هاما في التاريخ السياسي للبلاد ، وسوف تكون مساهمة جديدة تاريخية للحزب اللينيني ولافراد شعبنا جميعا صاحب القضية العظمى باشادة الشيوعية ، وبنفس الوقت فسوف يكون صرحا للقضية الدولية في كفاح عمال العالم أجمع في سبيل الحرية وفي سبيل تقدم الانسانية وفي سبيل سلم دائم على الارض ٠

برافدا ـ ٢٦ أيار ١٩٧٧

في سبيل حرية الشعب وتحريره

كيم سونغ غوك

كانت المسيرة من نا باي تسو ، في مقاطعة مينغ شيانغ، الى باي تا لينغ تسو ، شاقة عنيفة الى حد لا يوصف ٠وعندما بلغت نهايتها ، قال لنا الماريشال كيم ايل سونغ ، القائد اللامع المظفر دائما وأبدا ، ذو الارادة الحديدة : ها أننا قد حققنا انتصارا آخر له معناه في الكفاح الذي أعلناه ٠ انمعنى المسيرة الاخيرة هذه لا حدود له ، من حيث أننا أنزلنا بالعدو ضربة قاسية ،والاهم هو أننا قد أثبتنا ببرهان جديدتمتعنا بروح نضالية لا تقهر ، قادرة على التغلب على الصعوبات جميعا ٠ كما أننا قد برهنا على عظمة قوةتمسكنا بالثورة ٠ هذه هي الفعالية التي يجب علينا أن نحافظ عليها حتى النهاية ٠

الحق يقال ، لقد كان الطريق الذي اجتزناه قاسيا وصعبا ، ولكنه كان في الوقت نفسه طريقا مظفرا ٠ لقد يئس العدو من محاولاته لتدميرنا والقضاء علينا ٠ ولقد ركز قواه جميعا ، واستعمل ضدنا شتى الاساليب : من ملاحقة متواصلة مستمرة ، الى محاصرات متعددة متنوعة ، وعمليات مزعجة متقطعة ٠ ومن جهة أخرى فقد أطلق العدو شائعات سخيفة مضحكة مثل : لقد تجمد الفدائيون في أعماق جبال شانغ باي حتى ماتوا جميعا وهلكوا ٠ أو أن وحدات كيم ايل سونغ قد أبيدت في العمليات التأديبية الاخيرة ٠

كان علينا أن نخوض مع العدو معارك ضارية لقهره ، يطاردنا في كل يوم ، واضافة الى ذلك فقد كان علينا أن نتحمل بردا مريرا وجوعا أليما ٠وكنا أحيانا نفرغ حقائبنا ونجمع ما يملىء كوبا من دقيق الارز المحموس ، ونقدمه الى الرفيق كيم ايل سونغ ٠ ولكنه كان يرفضه ويوزعه علينا بالتساوي ٠ لقد كانت محبته العميقة هذه تشجعنا نحن الفدائيين وتردف عزيمتنا وتجددها ٠ وهكذا سرنا الى الامام على الطريق الذي اختطه ٠ وبهذه الطريقة خضنا تجارب المعارك العنيفة والمسيرات التي اختبرت فينا روح القتال الثورية واختبرت شجاعتنا ،وفي النهاية بلغنا المعسكر السري

قرب باي تاتينغ تسو ، في مقاطعة تشانغ باي ، الذي كنا نسعى اليه ٠

وأثناء ما كنا نقوم بالمسيرة الشاقة خلال فصل الشتاء ، كانت الاوضاع الثورية في منطقة شانغ باي وفي بلادنا جدية للغاية ٠ فحوالي نهاية عام ١٩٣٨ ، عندما كانت جميع وحدات جيش الثورة الشعبية الكوري بقيادة الماريشال كيم ايل سونغ قد غادرت منطقة شانغ باي ،ضاعف الامبرياليون اليابانيون اضطهادهم وتنكيلهم،وأوقفوا أعضاء جمعية اعادة بناء أرض الاباء ، وأوقفوا رفاقا عديدين من اتحاد التحرير الوطني الكوري٠

وفي مثل هذه الظروف ، عقد اجتماع قادة جيش الثورة الشعبية الكوري قرب باي تاينغ تسو في ربيع ١٩٣٩ ٠ ووفقا لخطة استراتيجية وضعها الماريشال كيم ايل سونغ في اجتماع ، تقدمنا نحو منطقة سوسان في داخل أرض الوطن ٠

لقد كانت خطة الماريشال كيم ايل سونغ تستهدف اعلام الكوريين داخل البلاد أننا نحن جيش الثورية الشعبية الكوري نقاتل بعزيمة ، وتستهدف كذلك مضاعفة عزيمة المنظمات الثورية وتنشيطها اذ كانت تعاني من اضطهاد العدو وتنكيله ٠ وفي سبيل تحقيق ذلك فقد كان على جيش الثورة الشعبية الكوري أن يتقدم ضمن أرض الوطن ، وينزل بالعدو المتعجرف صفعة أخرى ويلقنه درسا جديدا ٠

ووفقا للخطة الحكيمة التي وضعها الماريشال كيم ايل سونغ وبقيادته شخصيا ، فقد غادرنا المعسكر السري في هاي هسيا تزوكو باتجاه أرض الوطن في الخامس عشر من شهر أيار وكان حماسنا من احتفالات اليوم الاول من أيار المظفر في ذلك العام لا يزال متأججا ، وروحنا المعنوية عالية ، وكنا مصممين على ابادة العدو ٠

وعند اقترابنا من ايراشي هسوتاوكو ، في منطقة شانغ باب ، أرسل الماريشال مجموعة من الكشافين لاستطلاع مواقع العدو بأوسع التفاصيل الممكنة ٠ ثم قادنا في الثامن عشر من الشهر عبر نهر آم نوك غانج غير المستطلع ٠

يصعب على ايجاد الكلمات للتعبير عن حماسي في ذلك الوقت ، فعندما وجدنا أنفسنا نقبل أرض الوطن العزيزة على قلوبنا ، والتي لا يمكن أن ننساها أبدا ، في نومنا وفي اليقظة ، كانت قلوبنا مفعمة بالحرارة يغمرها التأثير العميق ٠

ها نحن هنا من جديد تطأ أقدامنا تراب وطننا الام بعد أن تخطينا الصعوبات مئات المرات ، ووقفنا بصمود على طريق الثورة ٠ وأسرعت أذهاننا الى العديد من رفاق السلاح ممن ليسوا بيننا هنا الان ٠ وجدنا العزم والتصميم على الكفاح حتى النصر ٠ وغرف كل منا في راحة يده حفنة من التراب المفعم بأريج أرض الوطن الام ، والتقط منها بعض الحصيات ووضعها في جعبته ، معاهدا نفسه على القتال بمزيد من الشجاعة ٠

وقطف الماريشال كيم ايل سونغ بعض الازهار وشمها ثم نظر الينا ونحن منشغلون بانفعال وقال: الازهار الكورية بديعة ساحرة ، كلما نظرت اليها بدت أكثر جمالا وروعة ٠

ثم سأل الفدائي الشاب أو سونغ : هل تعلم ما هو اسم هذا النهر ؟

الرفيق أو سونغ كان غريبا جدا عن أرض الوطن ، لقد سمع مرارا عن نهر أم نوك غانغ ، الا أنه لم يسبق أن رآه قط ٠ وعلى ذلك فقد تلعثم بعض الوقت ثم قال : أليس هذا نهر أم نوغ غانغ ؟ فتأثر الماريشال وقال : صحيح ، هذا هو نهر أم نوك غانغ الكوري ٠

لقد ولد الرفيق أو سونغ خارج بلاده ، ونما وترعرع محروما من الام ، فشعر الان وكأن أمه تعانقه وتقبله عندما وطأت قدماه أرض الوطن ، وهذا ما جعله يسأل الماريشال سؤالا بعيدا تماما عن الموضوع : الان سوف نترك هذا المكان ونعود ثانية ، أليس كذلك ؟ فأجابه الماريشال باسما ؟ أظن علينا أن نعود لكي نرجع الى وطننا الام مرة واحدة نهائيا ٠ وبعد استراحة قصيرة في المكان ، تسلقنا الجبل وتقدمنا على طول أخدوده حتى بلغنا سفح اتشونغ بونغ بيك حيث عسكرنا وأمضينا الليل ٠ وكانت ليلة حافلة لا تنسى٠

وجلسنا حول النار المتأججة ، وكانت تصدر أصواتا بهيجة ، وتحدثنا بحيوية عن الوطن الام حتى ساعة متأخرة من الليل ، وجدنا العزم على أن ننزل بالعدو ضربة قوية ٠

وبناء على تعليمات الماريشال كيم ايل سونغ ، فقد أخذنا ننتزع قشور الاشجار ونكتب على الجذور المقشورة شعارات مثل : « يا شباب كوريا انهضوا بسرعة ، والتحقوا بعزيمة بالحرب ضد اليابانين » و « فلتسقط جوقة المهرجين العسكريين اليابانيين الفاشيست » ٠ وكان حماسنا شديدا اذ كنا نفكر بأن ما نقشناه من شعارات من أعماق قلوبنا سوف يكون نداء حق قوي لابائنا واخواننا ليعطيهم قوة جديدة ٠

ووقفت بعض الوقت أنظر الى الاحرف وأتأملها وأنا أحس وكأنني في بلد غريب وقد كتبت رسالة الى أبي وأمي ،

وتمنيت لو أن الرسالة تسلم اليهما بأسرع وقت ممكن . اني لاذكر المشهد الان حيا ماثلا أمام عيني وكأن حوادثه قد وقعت يوم أمس .

واسترحنا في العراء في كون شانغ ويغا بونغ . وفي اليوم التالي توجهنا نحو بحيرة سام جي يون . وتوقفنا عند شاطىء البحيرة للراحة ، وتناولنا طعام الافطار . وقال لنا الماريشال كيم ايل سونغ أنه لن يكون أمامنا ماء ما يقارب مئة ـ ري ـ ، وأنه بالتالي يتوجب علينا أن نتزود بالماء لمواجهة ذلك . وهكذا فقد شربنا من ماء البحيرة النقي البارد حتى ارتوينا ، وأملأنا مطراتنا . وكانت جبال الوطن ومياهه محببة جدا ، فراح الفدائيون يتمازحون ويسفح الواحد منهم الماء على الاخر كالاطفال الصغار .

وبعد أن تناولنا وجبة الطعام،وأعددنا أنفسنا اعدادا تاما ومشينا بنشاط مستقبلين الشمس على طول طريق كابسان ـ موسان ـ العسكري الموصل الى مرسان عبر هيه‌سان

لا يمكن لاحد قط أن يتخيل أن أرتالا من الفدائيين كان يتنقل على طول طريق محروس فتحه العدو حديثا ، ولم يكن تنقلنا على ممر في أعماق الجبال وانما كان في وضح النهار حيث ينتظر أن يتواجد العدو في كل مكان .

لو أننا جعلنا طريقنا عبر الغابة لاعاق ذلك في تقدمنا في منطقة موسان ، والادهى كذلك هو أن تأخرنا في الغابة يحتمل خطر محاصرتنا من العدو في المكان الضيق .

وكان الماريشال كيم ايل سونغ بحكمته وبعد نظره قد تحسب من ذلك وقرر أنه خير لنا أن نسلك الطريق العام ، وقدر أن العدو سوف لا يهتم كثيرا بالطريق معتقدا بأننا موجودين في الغابة ، ذلك بالاضافة الى أنه كان على يقين من أننا على قدر من القوة يكفي لهزم العدو حتى اذا ما التقينا به على الطريق العام .

كان مضحكا حقا أن نضرب العدو على نفس الطريق العام الذي أقامه هو نفسه ليحرس منطقة الحدود ، وكنسه ونظفه ليؤمن مراقبته وتفتيشه .

ومضينا بموكب فخور لا تعب ولا وجل . ولمجرد كون الماريشال هو الذي يقودنا ، فقد كنا نحس بالامان مطمئنين الى مقدرتنا التامة على تدمير أي عدو وابادته .

وفي موبو ، دعى الماريشال كيم ايل سونغ الى اجتماع القادة وأعطى أوامر قتالية محددة ثم أوضح لنا فرص الظفر في معركتنا القادمة . وفي الثاني والعشرين من الشهر تقدمنا بسرعة نحو منطقة موسان بروح معنوية عالية

ووفقا للخطة الموضوعة ،فقد أرسل الماريشال كيم ايل سونغ بعض القوات باتجاهين اثنين ، أحدهما سامسو يونغ والاخر موبو ، بمهمة اعتراض ما قد يرد من امدادات العدو من ريد روك ومن هاسان ومبوبة . وكذلك فقد وزع بعض العناصر في كاشي بونغ بيك الواقعة في وسط سهل تايهونغ دان .

وبعد ذلك قاد الماريشال كيم ايل سونغ القوات الرئيسية نحو سهل تاي‌هونغ دان القريب من كووك سادانغ. وكانت هذه العملية السريعة خطوة جريئة لمنع العدو من التحرك .

وبالقرب من كوك سادانغ قسم الماريشال كيم ايل سونغ وحدات الفدائيين للعمل في اتجاهين اثنين ، وقاد هو بنفسه الفرقة الثامنة وسرية الحراسة نحو سين سا دونغ ، وأما الفرقة السابعة التي تولى مسؤوليتها الرفيق أود جونغ هوب فقد كانت مهمتها الاغارة على مستودع الاخشاب في سينغا يشوك العائدة لمعمل الورق كوريا الشمالية ، وهي مؤسسة يسيطر عليها احتكار الرأسمال الياباني الامبريالي ، وتطهير المكان من الاعداء بسرعة .

وفي معركة اليوم الاول في سيغا هيه شوك أسرت الفرقة السابعة عشرين وغدا من مركز حماية الغابة ورؤسائهم اليابانيين جميعا دون أن تطلق رصاصة واحدة . أولئك الانذال الذين ترأسوا العمال بخبث هناك ، كانوا خائفين الى درجة أن ارتبطت ألسنتهم أمام جيش الثورة الشعبية الكوري . وكنا قد كشفنا قبل ذلك أسرار نظام الاشارة والاتصال عند الاعداء .

وهكذا ، وفي خلال ساعة واحدة تمكن الفدائيون من الاستيلاء على منطقة جبل رون سان الممتدة ١٥ ـ ري ـ من توجيباوي الى سينايتشوك . ولقد كان مستودع الاخشاب مملوءا بالاطعمة والملابس والتجهيزات الاخرى من حصيلة عرق الكوريين ودمهم .

كان الشعب يتضور جوعا بينما الارز يفسد في مستودع المستغلين . فوزعنا على الجماهير المحلية تلك الكمية الضخمة من الاطعمة المستولى عليها من مستودع العدو . وبلغ تأثر الجماهير حد البكاء ، وقالوا : ان علينا أن نساعدكم ولكن ها نحن نتلقى المساعدة منكم ، لن ننسى قط وحدات فدائيي الجنرال كيم ايل سونغ .

والقينا الخطب في تلك الليلة على الجماهير وأنشدنا الاناشيد ورقصنا معهم .

وأقيم مركز القيادة في سينسادونغ . وتحدث الماريشال كيم ايل سونغ مع العاملين في المحطة من أبناء المقاطعة حتى

ساعة متأخرة من الليل · وشرح الماريشال حتمية سقوط الامبريالية اليابانية والسبب في كون محطة الاخشاب يعيشون عيشة بائسة رغم كونهم العاملين في طوال الوقت · وقال ان الامبرياليين اليابانيين هم المسؤولين عن ذلك · وعلى هذا فقد وجب على الفدائيين والشعب الكادح أن يوحدوا قواهم ويحاربوا الامبرياليين اليابانيين ، ثم أضاف: آمل أن تكونوا معتنين جدا بتربية أولادكم وبتغذيتهم بحيث يصبحوا مواطنين أشداء · وانني أنصحكم بأن تعلموا أبناءكم وبناتكم القراءة والكتابة باللغة الكورية باستمرار ·

وبعد هذه العبارات الرقيقة أشار الى حاجب شاب وقال : هذا الفتى يتيم ، ورغم أنه صغير السن فقد التحق بجيش الفدائيين وتعلم القراءة والكتابة واكتسب الروح الوطنية والان فانه يجيد القراءة وهو يناضل ببسالة في سبيل بلاده كما ترون ·

وكان العمال مأخوذين وهم يصغون الى كلام الماريشال كيم ايل سونغ الىدرجة أنهم يلاحظوا انقضاء الوقت ،وكانت الدموع تترقرق في عيونهم عندما عادوا الى منازلهم في ساعة متأخرة من الليل ·

كانت القرى البعيدة في الجبال مسحوقة تحت وطأة الامبرياليين اليابانيين يضطهدون سكانهم ويدوسونهم ، أما اليوم فكنت ترى هذه القرى عن بعد وهي تغلي بالحياة وكأنها في مهرجان ، ذلك لان الفدائيين كانوا هناك ، وكان العمال يقولون لبعضهم بحماس : ان قائدنا كيم جينرال من مواليد جبل بايك دو سان ، وقد وهب بصرا وبصيرة ، وهو يستعمل السحر في تقصير مسافات السفر عند عبور الجبال، وعلى ذلك فلن يمض وقت طويل قبل أن يلق اليابانيون يوم الحساب ·

وانشغل الناس في القرية حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة بجمع الشوفان واعداد الفطائر لتموينا وصنع طابات من الارز لطعامنا أثناء السير ·

وانسحبت القوات الرئيسية لجيش الثورة الشعبية الكوري الى جوار كوكسا دانغ في سهل تاي هونغ دان بعد منتصف الليل · وبانتظار عودة الوحدات التي كانت قد أرسلت الى سينغ تشوك والىالجزء المنخفض من توجيباوي ، أمر الماريشال كيم ايل سونغ الوحدات التي وصلت باتخاذ الاستعدادات الكاملة للقتال في حال قدوم امدادات العدو من سانغ بيونغ ·

وكما كان قد توقع ببعد نظره الحكيم ، ففي صباح الثالث والعشرين فقد جاء مئات منوحدات الجيش والشرطة اليابانية بالخوذ الفولاذية ومسلحين بأسلحة ثقيلة لمطاردة وحداتنا التي كانت قد أرسلت الى سينغ لي تشوك ·

والان ، وقد أصبح واضحا أنه سوف يقع اشتباك ضار بين وحداتنا وبين العدو في سهل تايهونغ دان ·

وكان الماريشال كيم ايل سونغ يراقب الموقف ، فأعطى الاوامر بفتح النار · فلفظت رشاشاتنا وبنادقنا اللهب على الفور · وبهذه الاثناء تلقى قائد سرية الحرس أوبايك رايونغ أوامر من الماريشال ، وغادر فورا مع قوة من رجاله ، وقادهم بسرعة في التفاف نحو الشرق ، وجابه العدو بهجوم بطولي ·

فاضطرب العدو وقد أخذته المباغتة شر مأخذ ، واختلط الحابل بالنابل ، وغدت ملابس القتال أشبه بالمربي ·

وفي ذلك اليوم تشبثنا نحنالفدائيون بموقعنا وسحقنا كل مجموعة من قطعات العدو تظهر أمامنا الواحدة بعد الاخرى ·

وكان قسم من قوات العدو ينهزم نهائيا بدون وعي نحو يوغوك عندما اصطدم على طول جبهته بقطعات معادية كانت مقبلة مسرعة · وهناك نفذ عناصر الطرفين مشهدا رائعا وهم يتبادلون اطلاق النار بسخاء فيما بينهم لشدة ما أصابهم من ذعر حتى لم يبق منهم الا القليل القليل فتولاهم رجالنا بنيرانهم حتى أبادوهم عن آخرهم ·

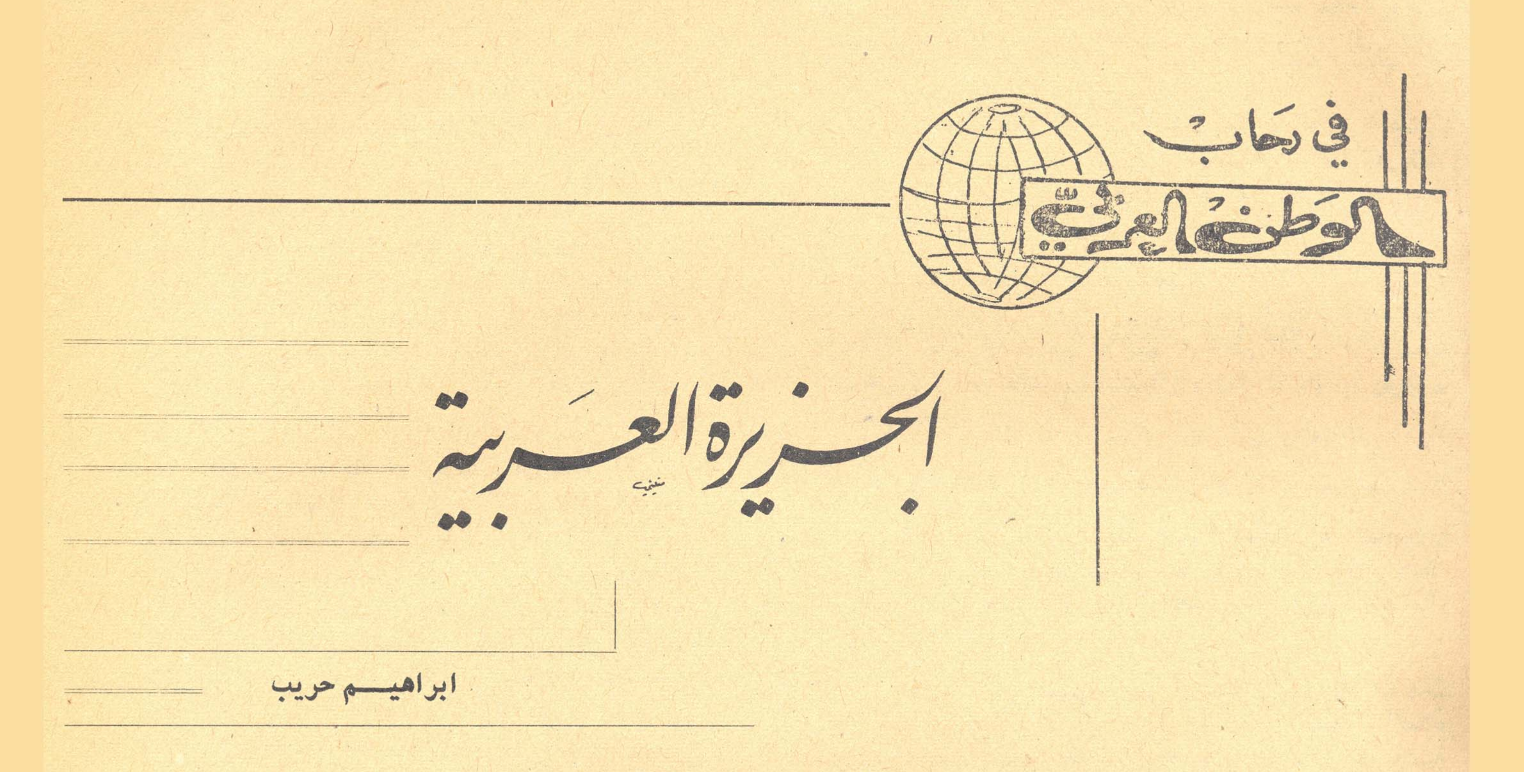
وبعد أن ربحنا المعركة في سهل تائهونغ دانغ ، عبر جيش الفدائيين المعادين لليابانيين نهر تومارغانغ ، وتابعت سيرها نحو خليج أوهايرشي الصغير ·

واستدعى العدو المنهزم في سهل تايهونغ دان بعض القوات من الفرقة التاسعة عشر ، وجمعت مئات من وحدات الامداد في الساحة · الا أن الخوف كان مسيطرا عليهم الى حد أنهم لم يبادروا الىملاقتنا مباشرة ، وراحوا يتسكعون في جوار كولسا دانغ ، ولم يلحقوا بنا الا عندما كنا نعبر نهر تومان غانغ ·

وعبر نهر تومان غانغ ، أبادت القطعات الرئيسية من جيش الثورة الشعبية الكورية أكثر من مئتين من الدمى الاراغوزية لقطعات الجيش الماندتشوي كانوا بأمرة قائد ياباني على خليج أويرتشي ، في مقاطعة هولونغ ، حوالي أواخر شهر أيار · عندئذ بنينا معسكرا سريا في أعلى موقع عليه واسترحنا ·

وتمتعنا بالراحة وبسرور بالغ وارتياح عميق ، راحة استحقيناها عن جدارة بعد معارك طويلة متواصلة ·

وبغية احراز انتصارات أكبر في معارك جديدة مقبلة واستعجال يوم نصرنا النهائي فقد بذلنا الجهد لبناء قواتنا بناء أكثر صلابة ·



الجزيرة العربية

ابراهيم حريب

الجزيرة العربية ، بحدودها الطبيعية وبما تمتد اليه، وحدة سياسية واجتماعية مكاملة ، وان جميع المؤثرات التي ساعدت على تكوين سمات سكانها وعقليتهم وأساليب تفكيرهم ونفسياتهم واحدة ، والعوامل التي أدت الى تحكم عادات وتقاليد وأعراف واحدة ، واذا كان ثمة من فروق واضحة أو غير واضحة للعيان أثرت في الحياة - قوة أو ضعفا - في ناسها وفي بعض أصقاعها ، فان هذه الفروق لم تكن متنافرة أو متناقضة ، ولقد انعكس هذا كله على جميع المعطيات الانسانية والابداعية انعكاسا بينا ٠

ويبدو هذا الرأي غريبا ، فقد اتفق كثير من العلماء على أن الواقع الجغرافي عامل أساسي ومؤثر بعمق في تكون الامم وتحديد عقلية الشعوب ونفسيتها ، والجزيرة العربية تعد قارة مترامية الاطراف واسعة الارجاء مختلفة المناخ ، فيها بلاد حارة وبلاد باردة وأخرى معتدلة ، وفيها صحارى مقفرة تكسوها الرمال وتلعب فيها أرواح السموم اللاهبة ، ولا زرع فيها ولا ماء ٠ وفيها الرياض المخضلة الورافة ، تتفجر الينابيع الثرة وتعطي ناسها من طيبات الحياة ، تنعش النفوس بطبيعتها الساحرة ونسيماتها العاطرة ، وفي أطرافها بحار تلتصق بالصحراء في مكان وبالجبال في مكان آخر ٠ وبين هذه وتلك سهوب قاحلة وسهول تنبت الاعشاب فترعاها الماشية ٠ وناسها اختلفت أيضا طرز حياتهم ، فمنهم من يعيش في البيد لا يستقر على حال في أرض ، قانعا بعيش راضيا بحياة فرضت عليه ولا يستطيعلها تبديلا وآخرون في قرى ليس لها حظ من مدنية أو نصيب من حضارة ، وغيرهم في مدن ينعمون بما أفاء الله عليهم من رغد ونعيم ٠

المفروض أن انعكاسات هذه الظواهر الطبيعية والحياتية على الناس في الجزيرة العربية ، يجب أن تؤدي الى تباين في الخلق والخلق، وفي التفكير والعطاء ، وبالاحساس

بأمور الحياة الخاصة والعامة ، وفي تصرفات الناس ، أي أن تكون في الجزيرة العربية أمم متعددة ، وليس أمة واحدة ·

لكن انعكاسات هذه المؤثرات في حياة الامة العربية التي كانت الجزيرة العربية مهدها الاول، ومنها اندفعت وتوسعت جاءت مغايرة بحقيقتها لما عرفه الناس وأكدته النظريات المختلفة من ان العامل الجغرافي هو المؤثر الاساسي في تكوين الامم خلقا وخلقا ·

غير أن الدراسة الموضوعية والوقائع الثابتة تؤكد على أن الجزيرة العربية ، وفي امتدادها الجغرافي والسياسي ، أمة واحدة ، لها لغة واحدة وقومية واحدة ، ويتشابه أبناؤها في السمات والتكوين البدني ، ويتحدون بالاخلاق والتقاليد والعادات ، ويتفقون بأحاسيسهم الانسانية والوجدانية في أدق صورهما ، ويستقون تفكيرهم وعطائهم الادبي والفني من معين واحد ·

ويبدو لنا من هذا كله أو بعضه ، أن عامل الوراثة كان أكثر أهمية من العامل الجغرافي في تكون الامة العربية وتحديد شخصيتها وتمييز خصائصها الذاتية والانسانية ·

ولعل هذا ، بما أضيف اليه من عوامل دينية عندما ارتضت بالاسلام دينا واضطلعت بحمل رسالته ، كان سر تفاعل الامة العربية بسرعة مذهلة مع الحضارات المجاورة لها وقدرتها على اغنائها في البدء ، ثم ابداع حضارة جديدة فيها من روحية الاسلام وسماحته ، وفيها من القيم التي ورثتها وصقلها الاسلام بجميع خصائصه العلمية والوجدانية والانسانية ·

ولم يكن عامل الوراثة قد أعطى أثره البليغ في التكوين البدني والوجداني لسكان الجزيرة العربية في حدودها الطبيعية المعروفة في الماضي فحسب ، وانما امتد أثره الى جميع سكان البلاد التي تنطق بالعربية اليوم ·

لقد نشأ هذا الاثر البليغ من الهجرات التي اندفعت من الجزيرة العربية في حقب متفاوتة ، وامتزجت كليا في السكان الاصليين وتفاعلت عضويا ووجدانيا معهم ·

ان أول هجرة اندفعت من الجزيرة العربية كانت في حوالي عام ٣٥٠٠ ق·م · عندما انهار سد مأرب وقضى على كثير من المعالم الحضارية التي كانت قائمة حوله ، وقد يممت هذه الهجرة وجهها نحو الشمال ، ومنه انطلقت الى الاراضي الخصبة في الشام ووادي الفرات حيث استقر البابليون ·

وبعدها بنحو ألف سنة تقريبا اندفعت موجة جديدة استقرت في فلسطين والشام ، ويذهب بعض المؤرخين الى ان الفينيقيين والكنعانيين هم الذين كانت تتألف منهم هذه الموجة ·

وزحفت هجرة ثالثة حوالي سنة ١٥٠٠ ق·م من وادي الفرات ولعلها من سلالة الهجرة الاولى التي استقرت في العراق ، واستقرت في فلسطين ·

وفي حوالي سنة ٥٠٠ ق·م وقعت هجرة رابعة الى أرض الشام ، واستقرت فيها وأسست دولة الانباط ·

أما أهم هجرة وأعظمها تأثيرا ، فهي تلك التي اندفعت متتابعة في القرن السابع الميلادي وعلى نطاق واسع والى بلاد مختلفة ، عندما بعث النبي العظيم محمد (ص) وبشر بدين الله ، وحمل العرب من بعده رسالته الى الناس كافة ·

الى جانب هذه الموجات ، كان جنوب الجزيرة على اتصال وثيق ، تجاريا وحضاريا ، مع سكان سواحل افريقية المتاخمة له ، وليس من شك في أن بعضا من العرب الجنوبيين قد استقروا في تلك السواحل ·

ولقد استطاعت هذه الهجرات ، بخاصة الاخيرة ، الامتزاج والتفاعل رويدا ، رويدا ، مع السكان الاصليين وتتفاعل معهم وتطبعهم بطابعها الخاص المميز عضويا ونفسيا ، وكان الاسلام هو العامل المؤثر القوي في خلق الطابع الجديد ·

ولا بد لنا من ايراد ملاحظتين لهما أهميتهما :

الاولى : أن الشعوب التي امتزج بها العرب المهاجرون في موجات سابقة ، والتي تنتمي مع العرب الى أصول واحدة، تقبلت الاسلام دينا ، ورضت بالعربية لغة وفكرا وعطاء حضاريا ·

الثانية : ان الشعوب التي لم تمتد اليها تلك الموجات أولا ينتمون مع العرب الى أصول واحدة ، رضيت بالاسلام دينا ورفضت العربية لغة ، ولهذا نرى أن اللغة العربية تجمدت عند سفوح جبال طوروس وزغروس ، ولم تتجاوزهما ·

ولا يعني هذا الرأي انكار تأثير العامل الجغرافي في تكوين الامم خلقا وخلقا وتمييز شخصياتها وتحديد قدراتها على العطاء والاخذ الفكري والحضاري ، لكنه لم يكن المؤثر الوحيد بالعمق الذي صورته بعض النظريات ، فالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والوراثية المختلفة لها أثرها الاعمق في ذلك ، يضاف الى ذلك ظروف الحياة المختلفة التي قد تتهيأ منها لامة فترفعها ، وتتهيأ لامة غيرها فتخفضها ·

واذا ما درسنا الخصائص التي تميزت بها الامة العربية والتي تكونت من مجموعة العوامل التي ذكرنا ، نجدها قد تجلت في ظاهرتين اثنتين :

الاولى : قدراتها على التفاعل السريع والعميق بنفس الوقت ، وعلى امتصاص الفكر الحضاري وتمثله كالشجرة التي تمتص غذاءها فتتمثله وتعطيه ثمارا ناضجة يانعة · ولعل هذه الظاهرة هي سر نجاح العرب في حمل رسالة الاسلام الذي استطاع صياغة المجتمعات في البلاد التي انتشر فيها ، صياغة جديدة تتلاءم وتعاليمه السمحة ومتفقة مع نفسية الامة العربية ومنسجمة مع القيم التي حملتها لهم ·

الثانية : قدرتها على فرز الاجسام الغريبة التي حاولت أن تنغرس في جسدها ، فاما أن تبعدها ، واما أن تتمثلها وتضفي عليها طابعها الخاص المميز ·

اننا نعتقد أن هذه الظواهر هي التي خلقت فيها ارادة الصمود أمام كل ما اعتورها من زعازع ونكبات ، ووفرت لها الحماية ضد كل عوامل ومحاولات التفتت والطمس ، سواء كانت تلك المحاولات داخلية تمثلت بفتن وانقسامات وحروب خارجية تمثلت في غزوات ضارية وحروب نفسية وعقلية ارتكزت على أسس علمية ، مما لو حل بأمة أخرى لتفتت واندثرت ٠

يقودنا هذا الرأي الى بحث فكرة سادت أذهان الناس ، تساوى بها أعداء العرب وأصدقاءهم والعرب ، تقول هذه ان الانسان العربي فردي ، أناني وهما الدافع الاساسي للصراع على الحكم وما نتج عنه من جرائم واغتيالات ، وحروب ضارية ٠

وقبل أن نتبين خطل هذا الرأي أو صوابه ، لا بد لنا من التأكيد على أن غريزة ـ الانا ـ أو ـ الانانية ـ ـ غريزة أساسية في الانسان ، وقد أكدها علماء النفس والاجتماع وذهبوا الى أن الانسان الذي يفني ذاته في سبيل المجموع ، أنا ينطلق غريزيا من هذه ـ الانا ـ وحللوا أسباب ذلك ودواعيه بما فيه الكفاية ٠

ولكن ، هل كان الانسان العربي فرديا أنانيا بالمعنى الذي ذهب اليه أولئك الناس ؟

اننا نرى خلاف ذلك ٠ ونرى أنها تهمة ألصقت به ، وقد يكون لها وجود ، ولكن ليس بالمعنى الذي ذهب اليه الناس ٠٠ وانما بالمعنى الذي رأينا قبلا ٠٠

ان طبيعة حياته تنفي الفردية عنه ٠٠ الفردية المغرقة بالانانية التي صوره بها الناس ، فالعربي قد التصق بأسرته وحافظ على نسله كأشد ما تكون المحافظة ،فلم تشبه شائبة، وللعرض عنده وللشرف مفهوم خاص،وقد يرتكب جريمة اذا ما ظن أنهما دنسا ولو بنظرة أو همسة ٠

والتصق بقبيلته أوثق صلة ، بأرومتها وفروعها من بطون وأفخاذ ، وقد أدى ذلك بشخصيته الى أن تذوب في شخصية العشيرة بكل ما تؤمن به من قيم وأعراف وتتمسك به من تقاليد ، حتى في الرشد والغواية ٠

وهل أنا الا من غزية ، ان غوت
غويت ، وان ترشد غزية أرشد

وهذ االتلاحم دفع القبيلة الى نبذ الخارجين على أعرافهما وتقاليدهما وفرزهم عن جسمها ، ولا تقبل القبائل الاخرى بهم ، الا من كانت تناصب قبيلتهم العداء ٠

الى أن تحامتني العشيرة كلها
وأفردت أفراد البعير المعبد

هذه المعاملة القاسية ، تقتل في المرء أنانيته وفرديته ، وتخلق فيه عاملا نفسيا آخر يتسم بالعقلانية أيضا ، يحمله على أن يظل متمسكا بقبيلته ، تنبع تصرفاته من أوضاعها العامة وقيمها السائدة ، فلا يقدر أن يتصور نفسه منشقا على قبيلته كالبعير المعبد ، في تصرف أو تفرد ٠

والقبيلة التي تعتز بشاعر ينبع منها أو فارس يبرز ، انما تعتز ، لان له القدرة على تصوير مفاخرها واذاعتها بين القبائل ، وابراز شخصيتها ، ولان شخصيته تذوب فيها ، ولئن اعتز بنفسه وافتخر بمناقبه ، فان ذلك يكون من خلال شخصية قبيلته وتقديره للقيم والاعراف التي التزم بها من خلال التزام قبيلته أيضا ، ولئن تباهى فارس بشجاعته وفروسيته وقدرته على حماية نفسه وحيه وقبيلته ، فان الدافع لهذا هو صلته الوثيقة بالمجتمع الذي عاش فيه ، مجتمع القبيلة ،وكرس فروسيته وحياته لحمايته،وهو يشعر بعمق ، ان شجاعته مهما بلغت لا قيمة لها ان لم تساندها قبيلته وتذود عنه ٠

ولعل تصور العربي للحرية المطلقة تصورا يختلف عن تصورها في العصر الحديث ، كان أحد العوامل في اضفاء الفردية عليه ٠ فالعربي الذي عاش في الصحراء والعربي الذي عاش في المدن ظلت الوحدة النفسية وشيجة بينهما ، وبقي التشابه في النظرات والتصور لمشكلات الانسان والحياة ووضع الحلول لها قائما وثيقا ٠

انه استمد تصوره للحرية من طبيعة هذه الحياة ومن الصحراء التي تمتد أمامه بلا نهاية ، واستمده أيضا من ضنك عيشه واضطراره الى التنقل بماشيته من أرض الى

أرض لتعيش ويعيش ، واستمده أيضا من حاجته الى الحماية في حله وترحاله ، واستمده أيضا من غياب حكومة تنبثق من وجدانه ، وتوفر له العيش والحماية ، وتبعث في قلبه الامن والطمأنينة ٠

كان تصوره للحرية مزيجا من ذلك كله ، ولكنه كثيرا ما كان ينسى حريته ويتنازل عنها لصالح المجتمع المتمثل في قبيلته ٠

ولما جاء الاسلام ورسخت تعاليمه في قلوب العرب ، أصبح العربي غنيا بالتجربة ، متفهما للحرية ، مستوعبا لمعانيها بدقة وثقة ، وكادت عملية اذابة مجتمع القبيلة في المجتمع العربي الاسلامي أن تتم لولا الصراع على الحكم من بعد الخلفاء لراشدين ، فرجعت شخصية العربي الى الانصهار في مجتمع القبلية ٠

أن تقبل الانسان العربي للدين الاسلامي وايمانه العميق بتعاليمه ، وحمله رسالته ـ والاسلام دين جماعة ، ينفي عنه الفردية التي وصف بها ٠

ولقد انتبه الخليفة عمر بن الخطاب ومن قبله أبو بكر الصديق الى ظاهرة تعلق العربي بقبيلته ، فكونا كتائب الجيوش وسراياها في كل مراحلها ومعاركها وقيادتها الجزئية ، من القبائل تحت امرة القيادة العامة للجيش ، وقد أعطى هذا التشكيل ثمرته في الحروب التي خاضها العرب وانتصروا بها ، ذلك لان هذا التلاحم بين العربي وقبيلته ، جعلاه أكثر ثباتا وأشد مراسا وأقوى عزيمة في القتال ، وفي نفسه يتفاعل شعوران متلازمان بعمق ، شعور ايمانه بالدين ، وشعور التصاقه بقبيلته ٠

انسان هذا شأنه ، انسان يقول شاعره الجاهلي

لايسألون اخاهم حين يندبهم
في النائبات على ماقال برهانا

ويقول الشاعر من عصر متأخر ـ

اني وان حبيت الخلد فردا
لما احببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بارضي
سحائب لا تنتظم البلادا

انسان هذا شأنه لا يصح أن يوصم بالفردية المغرقة بالانانية ٠

ولئن قامت حروب ضارية بين القبائل العربية في الجاهلية أو في الاسلام ، فليست الفردية واحدة من أسبابها فمردها في الجاهلية الى عامل اقتصادي ، فقد رأينا من قبل طبيعة حياة الفرد في القبيلة والقبيلة بين القبائل ورأينا الحاجة الملحة الى الارض ذات الزرع والماء ، والتزاحم عليهما لتأمين مصدر العيش ، هذه كله هو الذي ولد الحروب ٠

وليس من شك في ان رواسب عميقة ظلت راسخة في نفوس الناس ، بالرغم من كل ما أتي به لازالتها تعليما وممارسة ٠ فقد ظلت خلل الرماد ، حتى قبض لها الصراع على الحكم اشتعالا ونموا جديدا ٠

والصراع على الحكم لم يكن ناشئا عن فردية الانسان العربي وأنانيته ، بقدر ما هو ناشيء عن طبيعة نفس الصراع السياسي والمذهبي ، فقد انبثق من رؤى متعددة ومتباينة لكثير من شؤون الحياة التي اعترضت المجتمع الجديد ٠ وأول هذه الرؤى ، هو طبيعة الحق في الخلافة ، ومن هو صاحب هذا الحق ، ثم اعقبتها رؤى أخرى خلقتها تفاسير انبثقت عنها مذاهب وفرق ، والعربي ـ فرد وجماعة كانت له بطبيعة الحال نظرة خاصة استقاها من الشؤون المطروحة التي كانت مثار جدل ونقاش ، فالتزم مع هذا الفريق او مع ذاك ، بحسب قناعاته التي توفرت وبحسب مصلحة يراها وامتد هذا الالتزام الى القبائل كمجموعات ، فانحازت الى جهة أو أخرى بكل أفرادها ٠

وليس هذا غريبا، فالامر يتعلق برؤية معينة او نظرة محدودة ، او مصلحة عامة او خاصة اذن ، فالعربي لم يكن فرديا بالمعنى الذي ذهب اليه أناس والحروب التي اندلعت بين العرب لم تكن بسبب فرديته ،والجرائم التي ارتكبت عبر التاريخ الاسلامي العربي لم تكن ايضا بسبب انانيته ، ولكنها طبيعة الحياة نفسها ، فالصراع قائم وسيظل قائما ، وبسببه ارتكبت جرائم بشعة في مختلف الامم والشعوب ، وليس لدى الامة العربية وحدها ٠

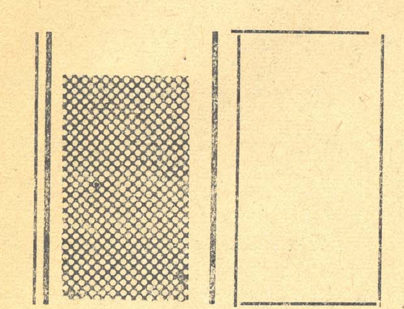
وفي هذا الموضوع لابد لنا من ملاحظة ان الشعوبية كانت وراء كثير من هذه الصراعات فقد لعبت دورا هاما فيها ، ولعلها هي التي الصقت بالعربي مثل هذه التهم ، في معرض تصوير مثالب العرب ، لوصمهم بمثالب أخرى ، تنفي عنهم جميع القيم الاخلاقية والوجدانية التي ورثوها ، وتنفي قدرتهم على التلاحم العقلي والنفسي مع المجتمعات ، ومع العطاء الحضاري والعلمي ٠٠

كان لابد لنا من دراسة وتحليل هاتين الظاهرتين : ظاهرة تأثير العامل الجغرافي في تكوين الامة العربية وظاهرة فردية الانسان العربي وانانيته التي زعم انها اساس الصراع الذي كان قائما ، لتكون تمهيدا لما يعقبها من دراسات مختلفة في شؤون الجزيرة العربية التي كانت مهد العرب واليها ترنو عيون الناس وتهفو قلوبهم ٠

اننا نعتقد بان دراسة هاتين الظاهرتين ، تظل الاساس المتين لجمع الدراسات الاخرى ، سواء أكانت تاريخية او انسانية ، ادبية او ثقافية ، سياسية او اجتماعية ٠

للبحث صلة ٠٠





صديقنا الاستاذ مصطفى الخش عاتب علينا ، لاننا نغفل أخبار الادب والثقافة في قطرنا العزيز ، ولكننا نهمس في أذنه ، اننا نستقي أخبار هذه الزاوية من الكتب التي تصلنا من مؤلفيها أو مما نقتنيه لمكتبتنا الخاصة ، أو مما نقرأ عنها في المجلات العربية ، وليس لنا ذنب اذا كان أدباؤنا ومعهم وزارة الثقافة والارشاد القومي التي تعنى بالنشر يضنون علينا بما يؤلفونه من كتب أدبية وفكرية .

ولسوف نبذل جهدنا ، ما وسعنا ذلك ، لملء هذا الفراغ ، لنكون عند حسن ظن القراء الكرام ، ومن بينهم صديقنا الحميم الاستاذ الخش .

● من تاليف الدكتور اسكندر لوقا ، صدرت عن اتحاد الكتاب بدمشق مجموعة قصصية للاطفال ، عنوانها ـ معجزة في قلب الصحراء ـ

● ـ تلك الايام ـ مجموعة قصصية لحسيب الكيالي ، صدرت أيضا عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق .

● عن دار الثقافة في دمشق ، صدر الديوان الشعري الخامس للشاعر محمد منذر لطفي ، عنوانه ـ امطار الربيع الدافئة ـ . ضم الديوان قصائد عاطفية وانسانية ووصفية نظمها الشاعر في العامين الماضيين .

● الدكتور احمد سليمان الاحمد ترجم قصائد للشاعرين البلغاريين ـ خريستو بوشيف ـ و ـ ايفان فازوف ـ ونشرتهما مكتبة الزهراء في دمشق بكتاب عنوانه ـ لا يستطيع ان يموت ـ .

● ـ ياشام ـ مجموعة شعرية للشاعرة هيام نويلاتي ، صدرت في دمشق ، تميز شعرها بالمحافظة على وحدة القصيدة .

● وزارة الاعلام في المملكة العربية السعودية تستعد لاصدار مجلة بعنوان ـ الاعلام ـ تختص بنشر بحوث تهتم بالشؤون الاعلامية في المملكة وخارجها .

● يفكر الفنان العربي السوري ضياء السكري بعمل أدبي رائع ، يخرجه في قالب موسيقي معاصر ، الغرض منه احياء أعمال صوفية من القرن التاسع وتمتد الى القرن الثالث عشر الهجري، للحلاج والسهروردي ومحي الدين بن عربي وغيرهم . يتالف هذا العمل من ١٧ مقطعا .. منها الفاتحة . تعويذة رقم ١ ، طه .. وسيخرج الفنان عمله في باريس ..

● « دراسات في الادب الاردني المعاصر » عنوان كتاب جديد للناقدة الاردنية أمينة العدواني ، صدر في عمان ، حاولت فيه الاديبة ملء الفراغ النقدي ، فدرست الحركة الادبية في الاردن من خلال دراسة انتاج ادبائه .

● يوسف السباعي الروائي المصري المعروف دفع الى المطبعة رواية جديدة ، عنوانها ـ شاطىء الاحزان ـ .

● ـ انحلال الجسد ـ مجموعة قصص قصيرة ،صدرت في القاهرة للاديب المعروف ابراهيم المصري .

● ومن ادب الرحلات ، صدر في القاهرة عن دار المعارف كتاب ـ جواز سفر انسان ـ لمؤلفه مفيد فوزي ، سجل فيه انطباعاته عن رحلته الى سورية وتونس وفرنسا وايطاليا ، .

● وسيصدر في القاهرة قريبا دراسة جديدة حول الادب الجزائري الحديث وحركة التعريب الناشطة التي تقودها الثورة في الجزائر .

● تنال الدراسات اسلامية اهتماما خاصا وملحوظا ، والكتب التي تصدر تاخذ حيزا في المكتبة العربية ، ففي القاهرة قدمت دار الشعب للقارىء العربي كتابا جديدا عنوانه ـ الاسلام والسياسة ـ من تاليف الدكتور فوزي النجار ، تتناول فيه اصول النظرية السياسية ونظام الحكم في الاسلام .

والرئيس احمد سيكونوري الف كتابا عنوانه ـ الاسلام دين الجماعة ـ ترجمة الى العربية محمد البخاري ، درس فيه الدور الهام للاسلام في حركة التقدم الحضاري وصقل انسانية الانسان عن طريق دمجه في الجماعة التي يتعاون أفرادها ، فالمسلم ليس فردا بل عضوا في جماعة ، وتضمن كتابة ايضا تاملات في احاديث الرسول العظيم حول هذا الموضوع .

وفي القاهرة صدر كتاب من تاليف الدكتور عبد الله محمد شحاتة عن الهيئة العامة لكتاب ، عنوانه « اهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم ـ .

● في سلسلة كتاب اليوم التي تصدر في القاهرة ، كانت الحلقة الاخيرة فيها مجموعة قصصية قصيرة للاديب المصري عزيز اباظة ، عنوانها ـ لاني احبها ـ .

● المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي ، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، اصدر ثلاثة معاجم جديدة اعدها الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله :

الاول : مصطلحات الفنون الجميلة والاذاعة والتلفزيون ،والثاني: مصطلحات هندسة السيارات ، والثالث : مصطلحات الملابس .

وقد صدرت المعاجم الثلاثة ، بثلاث لغات : العربية والافرنسية والانكليزية .

● الاديب الشاعر عبد الله زكريا الانصاري ، قدم للمكتبة العربية كتابا عن الشاعر الكويتي الراحل صقر الشبيب ، الذي عاش ضريرا ، اعتزل الناس واتهم بالالحاد ، ولعل هذا هو الدافع لتسميته بمعري الكويت ، الكتاب دراسة لشخصية وحياة الشاعر شعره وفكره .

● « البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي » كتاب من تاليف الدكتور محمد غانم الرميحي ، العميد المساعد في كلية الاداب والتربية بجامعة الكويت ، درس فيه مجتمعات دول : الامارات العربية المتحدة ، قطر ، البحرين والكويت ، تاريخيا وثقافيا ، وتضمن ايضا دراسات شاملة عن البترول والسياسة ، والاقتصاد التقليدي والحديث وعلاقة الانتاج بينهما ، والتغير في اوضاع هذه الدول من مختلف النواحي .

● الكاتب الكويتي عبد المجيد المجراب ، نشر كتابه ـ قضايا مسرحية ـ وهو دراسة وثائقية فنية عن نشاة الفن المسرحي في الغرب والشرق ، وتطوره ومذاهبه ومدارسه .

● وفي الجزائر صدرت مجموعة قصصية قصيرة للاديب طاهر وطار بعنوان ـ صفعات ـ ، ومسرحية عنوانها ـ الهارب ـ عرض فيها صورا من واقع الثورة الجزائرية .

● في سلسلة المسرح العالمي التي تصدر في الكويت ، صدر الجزء الثاني من الاعمال الكاملة لـ « جون ملنتجون منغ » وتضمن مسرحيات : فتى الغرب المدلل وفتاة الاحزان ، وعندما غاب القمر ، ترجمها الدكتور احمد السيد ، وراجعها الدكتور عبد الله عبد الحافظ متولي .

● « جبران خليل جبران ، حياته واعماله » كتاب جديد صدر في نيويورك ، بقلم خليل وجان جبران ، تناولا فيه حياة الاديب الكبير الراحل ١٨٨٣ ـ ١٩٣١ وطفولته وشخصيته ومجتمعه الذي كونه لنفسه في مهجره . ودرسا أعماله الادبية الكثيرة التي كان من أهمها « الاجنحة المتكسرة والنبي » . وتضمن الكتاب ايضا مجموعة من اثار الاديب المبدع ، التي لم يسبق نشرها ، منها وثائق وصور من حياته ورسائل كتبها جبران الى اهله واصدقائه.

● ترجم الى الايطالية ديوان الشاعر السوداني محمد الفيتوري المسمى بـ « اسبحي حتى تمر الخيل » ، وسيصدر عن دار النشر الايطالية ـ برامو ـ . طبعة الديوان العربية صدرت في بيروت من منذ عامين .